عبد العظيم فنجان: كيف تفوز بوردة؟!

عبد العظيم فنجان

# كيف تفوز بوردة؟!

منشورات الجمل

**عبد العظيم فنجان**، شاعر عراقي، يكتب بحساسية شعرية خاصة، لا ينتمي إلى جيل شعري معين، ويغرد خارج السرب، صدرت له عن منشورات الجمل الكتب التالية: **أفكر مثل شجرة** ، مجموعة شعرية ٢٠٠٩، وكتاب الحب، مجموعتان شعريتان: **الحب حسب التقويم البغدادي**، ٢٠١٢، و**الحب حسب التقويم السومري**، ٢٠١٣، ومن المؤمل صدور القسم الثالث منها قريبا، وهذه مجموعته الشعرية الرابعة. له إسهامات متفرقة في الصحف والمجلات العربية، وترجمت قصائده إلى عدة لغات أجنبية، وله دفاتر شعرية وروائية ستأتي تباعاً.

**عبد العظيم فنجان: كيف تفوز بوردة؟!**
الطبعة الأولى ٢٠١٤
كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس
محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٤
تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag 2014*
Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

**«أعيشُ على هذا اليأس الذي يمتعني:**
**اليأس خالق الدهشات الطويلة الناحلة، يأس الكبرياء،**
**يأس الغضب».**

أندريه بريتون

## إهداء

عزيزي **خالد المعالي**:

بحثاً عن **القارئ الشقيق** الذي لا بد أنه سيفهم أن «كيف تفوز بوردة؟» سؤال انطولوجي، وأن قصائد هذا الكتاب محاولة لإيجاد إجابة ما له، حيث الوردة رمز متعدد الدلالات: يشتمل التجربة المركبة، والخسارة الشاملة في الحب، في الوطن وفي الصداقة. لا بد أنه سيدرك أيضاً أن كل شيء خسرناه منحنا هذا الحس بتصحر العالم، حيث لا أمل، سوى ممارسة هذه الهواية الحزينة: مطاردة الرحيق بغية العثور على الوردة، وردتنا التي لم تولد بعد، في حديقة الكتابة..

**نيسان/ ٢٠١٤**

أولاً

# نسخة نقية من الحب والألم

**«رجلٌ مُخان قد يشعر فجأة، بينما يعبر الشارع، بسعادة غامضة لا تهبّ من جهة الأمل، بل من براءة عريقة تأتي من جذوره، أو من إله منسي، يعرف أنّ من الأفضل له إلا يحدّق فيه ملياً، لأن هناك من الأسباب ما هو أشد ضراوة من النسور، سيثبت له حتماً أن الوضاعة واجبة، ولكنه يرضى متواضعا بهذا القدر من الفوز..».**

بورخس

## sun flower

كنتُ أهربُ من الصفّ، وأجلسُ على سياج المدرسة، مُنتظراً خروجي مع الصالحين. عندما ضبَطَني أبي أكتبُ شِعرا، أعطاني كتابَ ألف ليلة وليلة: من يومها ابتدأتُ رحلةَ البحثِ عن «قوت القلوب».

من يومها وأنا أتدفّقُ من خواطر الينابيع، ومع دموع الصبايا: تمسحُ عنّي مناديلُ الأمهات غُبارَ سفر طويل، رأيتُ فيه مئات البلدان، وأنا جالسٌ بين أحضانِهن.

عشتُ في الكهوف، وأكلتُ العشبَ مع الحيوان في البراري: ارتعشتُ من البرد، وسجدتُ للبرق، ثم انتشرتُ في الرّعد: خدمتُ في المعابد، وعثروا على وجهي في ألواح الطّين عندما رسمتُ محبوبتي على جلْدِ الزمن: صعدتُ الفرات، ومعه انفجرتُ في كل فيضان: حاربتُ مع السومريين في أور، قاتلتُ مع البابليين ضدّ البدو، ثم سَلَبتْ لُبّي امرأةٌ آشورية، وتوارتْ في زحام مدينةِ نينوى، فبكيتُ حتى سالتْ دموعي في دجلة، وطافَ بي طائفٌ من الهُيام فهربتُ وحيداً، حتى وصلتُ إلى

آخر نقطةٍ في الزمن: رقصتُ كثيراً مع زوربا، وجلستُ طويلاً تحت شجرة بوذا: طفتُ مع عُرفاء ومتصوّفة، وطرتُ في الهواء مع المجانين، لكنّ صوفيا لورين أغوتْني، في الظلام، فقفزتُ إلى الشاشة، وأقنعتُها أنني الرجلُ الذي كانت تبحثُ عنه في فيلم «sun flower».

طردوني من السينما لأنني كنتُ ولداً وقحاً، فخرجتُ من الأحلام إلى العالم، ومعي قبلةٌ جادَ بها فمُها الخارق، لكنّني لم أصلْ إلى البيت، رغم أني سلكتُ نفسَ الطريق الذي أتيتُ منه.

كان أبي قد مات عندما وجدتُ السبيل إلى مقهاه، حيث كان يجلسُ الجنودُ الهاربون من الثّكنات.

كنتُ أريدُ أنْ أضعَ الحقيقةَ بين يديهِ المُتعبَتين من حفْر الأنفاق في السجون.

كنتُ أريدُ أنْ اشكرَهُ لأنه أفسدَ حياتي.

كنتُ أريدُ أنْ أشرحَ له خُلاصةَ العصور، فـ «قوت القلوب» لم تكنْ غيرَ إينانا السومريّة: مفقودتي التي تشعبتْ روحُها بين الدّخان والحرائق.

وحين حاولتُ أنْ أقصَّ الحكايةَ على عُشاق هائمين مثلي، صَعقتْني معرفتي، وفقدتُ القُدرةَ على النُّطْق، فلم أجدْ ما أفعلُهُ سوى أنْ أعودَ لأجلسَ على سياج المدرسةِ، مُنتظراً خروجي مع الصالحين..

# بدون رأس

أفكرُ في الظلِّ، ظلكِ الذي بقيَ معي، بعد أن غطّ العالمُ بالليل، وافترقنا إلى الأبد.

أفكرُ في اسمكِ الغريب، في الكتب التي اشتريتُها معكِ، والتي كلما فتحتُ واحداً طارت منه فراشةٌ.

أفكرُ في العشبِ تحت إبطيكِ، في طعم الملحِ، في رائحةِ الغرين، وفي تلك المرّة المذعورة، اللحظةِ الداعرة، المُفاجئة، التي لم أفعلْها مع امرأةٍ من قبلُ أو من بعدُ، عندما أسندتُكِ إلى الحائط: نظرتُ إلى وجهكِ الصغير، وجهكِ الجميل القبيح، الرائع الذابل والشهواني: دفنتُ رأسي في صدركِ، الذي خفقتْ أجراسُهُ بعنف، بحثاً عن أمي المفقودة، عن وطني، عن بيتٍ وعن صديقٍ، ثم مسحتُ دموعي، ومشيتُ:

تركتُ الراياتِ تَسقطُ مكسورةً على أرض المعركة، التي وزّعت قتلاها تحت قميصكِ.

تركْتُكِ مُرتبكةً، جَزعةً ومُشتعلة، وواصلتُ حياتي بدون رأس!

# ظل

تحت كلّ شجرة لكِ ظلٌّ، يأوي إليه مَن تعبَ من البحث عنكِ، دون أن يعرفَ..!

المعرفةُ ألمٌ لا يطاق.

# موسيقى كونية

العصفورُ الذي طافَ العالـمَ كي ينقلَ الرسالةَ، سقطَ ميتاً في الطريق. من القصب الذي نبتَ حول جثته صنعَ الرّعاةُ ناياتِهم، التي كلمّا نفخوا فيها من أشواقَهم انطلقتْ، من ثقوبها، عصافيرُ لا تُحصى، تطوفُ العالـمَ بحثاً عنكِ، ثم تسقطُ ميتة، قبلَ أنْ تصلكِ، ليأتي الرّعاةُ، جميعُ رُعاةِ العالم، ليصنعوا من القصب النابتِ حول الأجساد ناياتٍ، كلمّا عزفوا اسمكِ انطلقتْ من ثقوبها عصافيرُ تطوفُ العالـمَ، بحثاً عنكِ، كي تنقلَ إليكِ الرسالةَ..

# يفكرون مثل شجرة

كانوا قليلينَ جداً اؤلئكَ الذين أحبوكِ عن صدق، لدرجةِ أنكِ لم تُعيري ذلكَ أهمّيةً ما عندما خرجوا من حياتكِ بحثاً عن امرأةٍ تُشبهكِ، ولم يكنْ مُفاجئا لهم حين عادوا خائبين، فوجدوكِ وحيدة، وقد تفرّق عنكِ عشّاقُكِ الألف: مهجورةً كنتِ، مثل شجرةٍ ذابلةٍ.

اكتفوا بأنْ يَستريحوا عند ظلالكِ، فقد كانوا يُحبّونكِ ذابلة، أصلاً.

# لفتتُكِ

لا أُتقنُ إلاّ أنْ أفكرَ فيكِ، فأنقبَ عن آثاركِ في النسيان: نسياني الزائف الذي أحشوهُ، يومياً، بوجهكِ الحزين الخائف والمرتبك، وجهكِ الذي التفتَ نحوي، في لحظةِ شوق أخيرة.

في التفاتتكِ الوجيزة، في نظرتكِ المذعورةِ والمَهولةِ تلك، اختصرتِ الحبّ في أنقى لحظاتِه، فأتلفتِ كلّ ذاكرةٍ، وكلّ نسيان..

# قصيدة حب
# عن البغي التي أغوتْ أنكيدو(*)

المرأةُ التي أغوتْني، وجاءت بي إلى المدينة، جلستْ إلى جواري هذا الصباح، في حافلةِ الحياة، وحدثتني عن أنكيدو آخرَ تبحثُ عنه، لتكفّرَ عن غلطتِها، ولتعيدَهُ هذه المرّةَ إلى البراري.

كنتُ قادما من ألمٍ آخر، لم تتجوهرْ لُغتي بعدُ لأكتبَهُ بوجازةِ الدرّ، مكتفيا بما في خفّتي من ثقل، وبما في أعماقي من أسى، متواريا عن الأنظار خلفَ الكتابة، لكنها بوجهها المشمس، ببشرتها الشبقةِ التي تنضحُ دموعاً وفرحاً غامضاً، كعاصفةٍ شاءَتْ أنْ تستريحَ من الطوافِ عند ناصيةِ هشاشتي، اخترقتني بسرعةٍ مُدهشة، فرأيتُ هلاكي في النهر المار بين نهديها، عندما عانقتني بحنان، ونظرتْ ـ بأيّ أسف. إلى جسدي الذابل، زاعمةً

(*) **أنكيدو**: رفيق جلجامش، الذي أغوته امرأة وجاءت به إلى أوروك من البراري، حيث كان يعيشُ مع الحيوانات في ألفة.

أنها تراه، أنكيدو، يشعّ من داخلي، وأنها تسمعُ عواءَهُ، نحيبَهُ واضحاً، وأنها..

لم أصغ إليها، لأنني شعرتُ بلا جدوى العودة؛ إذ خسرتُ كينونتي مذ أنْ طاوعتُها أولَ مرة، فختمتُ هذه القصيدةَ بطريقةٍ لم تتوقّعْها، بل إنني ـ أنا نفسي ـ لم أتوقع أنْ أكونَ غليظَ القلب مع امرأةٍ سومريةٍ تنطوي على كلّ هذا الخيال.

# الأعزل

كان يعرفُ أنكِ لستِ له، لكنه لبث مُصمّماً على أنْ يُحبكِ بصمت، لأنّ استضافةَ وجهكِ، واستحواذَ خيالِهِ المضطرب على ملامحكِ، ولو لبُرهةٍ قصيرة جداً من الزمن، كان كافياً، بالنسبةِ له، لأنْ يَقطعَ طريقَ الحياة المُفخّخ بالرّعب، مُسلّحاً بسلطةِ الجمال.

# فكرتي عنكِ

الفراشةُ التي طارتْ من السّطر كانت قُبلةً خائفةً سقطتْ من شفتينِ مُرتبكتين، أتأملُها بحزن، لأنها تشعرُ بالرّعبِ من البرد القارس في عصرنا الشائِك:

لن أفزعَها بحركةٍ إعرابيّة، لنْ أرفعَها أو أنصبَها، ولن أسجنَها في حقلِ قصيدة؛ سيَغمرُها الغُبار أو سَيقضمُها جرادُ النسيان:

سأتركها تحومُ على هواها، حولَ رأسي، حيثُ تشعُّ نيرانُ فكرتي عنكِ..

# قصيدة حب إلى بلقيس

كان عليّ أن ألعبَ دورَ سُليمان، لأنها خرجت من أحد الأساطير، فيما كنتُ مستغرقا بالقراءة، وزعمتْ أنها بلقيس، فصرتُ ملكاً، لكن غيابَها، فجأة، أرغمني على أنْ أخلعَ التاج، أنْ أصرفَ الجن، الطيرَ والشياطين، من الخدمةِ، وأنْ أهيمَ في البراري، متبعاً خطوات غزلان، قال الهدهد: إنها مُشتقّةٌ من خطواتها، لكنني لم أجدْها قط، لا في سبأ، ولا في أيّ مكان آخر.

كان الأوانُ قد فاتَ على العودةِ إلى مقهى أبي، كما أنّ القصةَ لم تنتهِ بشكلٍ يجعلُ منها أسطورةً تسلبُ لُبّ أهلي، الذين فتشوا عني، في الأغاني، على شاشات السينما، وفي كتبِ الحب، من دون جدوى، فقد مرتْ قرونٌ كثيرة على غيابي، سقطتْ فيها حضارات، وانبثقتْ ثم ضاعت فيها أديانٌ كثيرة، لكن العشاق ـ وحدهم ـ عندما مدّوا أيديَهم في الهواء، حازوا على كمشةٍ من حسراتي.

لم يَعُدِ الخلاصُ مُجدياً، لأنني حين زهدتُ به تقدم طالباً

الصفحَ عن تأخره في المجيء، ولم أعرْهُ أهمية تُذكر، فقد اجتزتُ التوبة، وتجاوزتُ الحبّ أو اليأسَ من الحبّ، حتى تعرّفتُ على الألم في نسختهِ النقية، فاخترتُ أنْ أصمتَ حتى نهايتي التي لنْ يحدسَها أحد، إلا مَن زهدوا بالعالم من أجل بلقيسهم الخاصّة، أؤلئك فقط يفهمونني، وهم وحدَهم مَن يشعون من داخل هذه القصيدة.

## خرافاتي

أحبُّ يدكِ التي ابتكرتْني من الطين، وأكملتْ مُعجزتَها بأنْ رسمتْ تقاسيمَ وجهي، ثم هبطتْ فنحتتْ قلبي.
أحبُّ غايتَكِ مني، طريقَتكِ في العيش تحت سقفِ جسدي، واسلوبَكِ المرتبكَ في حمايتي.
أحبُّ عريَكِ في قديم الصباحات، حين كان العالمُ صالحاً للعيش، عندما أشرقتِ: تجلّيتِ بهيئةِ تفاحة،
آه..
تفاحتُكِ التي أكلتني.

أحبّكِ،
أحبّ شِعري الذي خرّبه جمالُكِ، وخرافاتي التي تُشبهكِ..

# الحظ !

كنتِ منيعةً ضدّ أوبئةِ الصّداقة، المدرسةِ أو الحب، وكنتُ أثبُ من على سياج نحافتي، لأكتملَ بكِ، لكن الهيكلَ العظميّ لعاصفتي سُرعانَ ما يتهدّمُ تحت ضرباتِ ريشتكِ.

آه، لقد حفظتُ المعوّذتيْن، أنا الكسول، من أجل أنْ أقرأهُما، وأنفخهما بوجهكِ، كلما التقينا، لأنكِ يائسة بدون سبب، ولم أعرفْ أنّكِ ولدتِ غاضبةً، أصلاً، حتى من الله، لكنّه الحظ !

كنتِ مُحصّنةً فطرياً ضدّ العائلة، وكثيرا ما هربتِ وضبطوكِ جالسةً عند المسنّاة، غاضبة، ترمين الأحجارَ على النهرِ، وكنتُ بابتسامتي، كلما عدتِ من أسفاركِ الطائشة، أحاولُ أنْ أمسحَ عن وجهكِ ذلك الأسى الغامض، أو تلكَ الدموع التي لم تُفلحْ في فرْكِ الصّدأ عن قلبِ العالم.

لم أكنْ معهم، ولا ضدّكِ. كان قلبي يُحاولُ أنْ يُتقنَ الشكلَ الذي يُناسبكِ، لكنكِ كنتِ مجبولةً على أنْ تكسريه.

# الفزاعة

كنتِ تسألينني أنْ أكفّ عن رمْي الأحجار صوبَ النافذة. تقولين لي: «صرتَ كبيراً، يا عبد العظيم» فأصدّقكِ، لكنني عندما أمدُّ يدي إلى القمر، وأعجزُ عن إمساك نوركِ الساطع بين أحجاره، أعودُ غاضبا، فأتسلقُ سياجَ الحديقة وأرميكِ، وسطَ عائلتكِ، بكلّ ما تحملُهُ يداي، من أجلِ أنْ ترفعي رأسكِ فترَيْني، مثلَ فزّاعةٍ وقعتْ في غرام حقولكِ.

ـ ابتعدْ، أيها الأحمق!

تصرخُ أمكِ، وهي تهشّني كالغُراب، من دون فائدة!

عندما أتذكرُ الآن كيف كان يَشتعلُ وجهُكِ، ويمتزجُ على بَشَرتكِ الفرحُ بالحزن، فتشتعلينَ وتنطفئين في نفس اللحظة، يتأكدُ لي أنني كنتُ حكيماً حتى في مراهقتي.

حماقاتي كانت تُناغمُ الكون في عبثيتِهِ، وهي الطريقةُ الوحيدةُ لحلّ اللغز، لغز جمالكِ.

# ابتسامة الظّفر

أنتِ التي تضغطُ الآن على ذاكرتي، فينفتح البابُ، الباب السريّ للروح، لتخرجَ المدارسُ والكتبُ، التظاهراتُ والسهرُ، حتى الصباح، تحتَ نور أعمدة الكهرباء.

كنتِ تحبينني ضائعاً في المشي تحت المطر، عائداً إليكِ بخسائرَ فادحةٍ تعطّ منها القصائد. تعشقينني كما أنا: أتدلّى من سقفِ العالم بحبل الإفلاس، ومن دواخلي يشعُّ، يلهثُ ذَهبُ وجهكِ المحفوف بفرح الطفولةِ، وبهبوبِ العواصف.

كنتُ أحبكِ كما أنتِ غيرَ آبهةٍ بالمصير، غائبةً عن الوعي، مثلَ كلّ السائرين في نومهم، مُستعدةً للمشي معي إلى الهاوية، وعلى شفتيكِ ابتسامةُ الظّفر.

أنتِ التي تضغطُ الآن على ذاكرتي فتخرجُ عصا أبي: تلسعُني على ظهري، في ذلك الصباح، ذلك الصباح، الذي هبطَ فيه الملاكُ على قلبي، فصرتُ عاشقا يضربُهُ والدُهُ بالعصا، ويرجُمهُ بالكُتبِ وبالشتائم، وتغمرينه بالقبلات، بطائراتٍ ورقية، وبعضّة من قلبكِ الذي كان أكبرَ من والدي، من آدم ومن حواء، من الأفعى ومن التفاحة.

# المفترق

كان ممكناً أن أكتبكِ بطريقةٍ أخرى، لولا أنّ حاجةَ الشعر إلى الغليان أخذتني إلى الأعمق، فالتقيتكِ في المفترق.. حيث لم يَعُدْ ممكناً إلا أنْ أرنوَ إلى وجهكِ بصمت، مكتفيا أنكِ كنتِ لي مرة، ولستِ لهذا أو لذاك أبداً، رغم أنكِ تعيشين إلى جواري وإلى جوارهم، رغبةً منكِ بالعيش عن قربٍ أو عن بُعد.

قصائدي، كلّ قصائدي، هي عن ذلك المُفترق، عن ذلك القربِ العصيّ على الفهم، الذي لا يُكتب أو يُقال..

# الفراشة

اعتقلوكِ بتهمةِ السحر في سومر، وحين قرأتُ الصفحةَ التالية من سيرتكِ وجدتكِ مصلوبةً في بابل، والعصافيرُ تسيلُ مع شعركِ الطويل. في آشور رجموك بالحجر، وحين دخلَ هولاكو إلى بغدادَ نثروا رمادَكِ على مياهِ دجلة: تلهجُ الأسماكُ باسمكِ، ويرمي إليك الصيادونَ شباكَهم في الخليج..

في البصرةِ كنتِ مع الزنج، ودخلتِ الأهوارَ بهيئة فراشة، طاردكِ أولادُ المعدان في المدارس، حتى صعدتِ إلى أورَ ثانيةً، ووقفتِ على كتفي..

# نملة تحمل على ظهرها الكون!

خططي تغيّرتْ: لم أعدْ أفكرُ في البطولةِ، في القتال مع خمبابا، في مقابلة سيدوري، أو في العبور المستحيل نحو أتونا بشتم: سجائري لا تكفي لمثل هذه الرحلة، ولذلك سأعتكفُ في داري، وسأنتدبُ الشعراءَ المأجورين للكتابةِ عن رحلةٍ لنْ أقومَ بها: هناك شعراءُ مأجورينَ دائماً، وأنا لن أستطيعَ أنْ أغيّر القدر.

منحتُ، اليوم، أنكيدو راتباً تقاعدياً: حفنةً من الغزلان والعشب والينابيع، كي يعودَ إلى البراري ويعيشَ هناك إلى أنْ يموت، فلا يعثر منقّبو الآثار على قلبه مكتظاً بالجرادِ الذي كان يأكلُهُ في المجاعات، ثم كتبتُ إلى عشتارَ رسالةً غراميةً حارة، ودعوتُها إلى أنْ نعيشَ معاً تحت سقفِ الرغبة، مادامت سومرُ ستسقطُ أولاً وأخيراً في يد البدو، كما هو مكتوبٌ في كتاب التاريخ، الذي قرأتُهُ في مقهى أبي، عندما كنتُ صغيراً، مثلَ نملةٍ تحملُ على ظهرها الكون.

# قصيدة حب إلى زيلخا

كنتُ أتناوبُ مع الذئب في حراسة طيفكِ من قطعان الجوع العاصف، التي تهبّ من أرواح اخوتي، وكنتِ المرأةَ الملعونةَ، التي قيلَ: إنها تسكنُ الآبار.

كنتُ أهربُ من أبي، ومن العائلة، لأقفَ عند حافةِ أبعد بئر: أنظرُ إلى داخلها، فأتعرّفُ على نفسي العميقةِ وارتجفُ، لأنني كنتُ أقابلُ رعبي وجهاً لوجه، فأهربُ منه وأفكرُ فيكِ، في سموّ وجهكِ، وفي عبقريّةِ جسدكِ العاري، وهو يتلألأُ في القعر، وقد فقدتُ عقلي، وتجلّى هُيامي على أشدّه، عندما انبثقتْ ذراعاكِ من أعماق خيال الماء، فجأة، فقفزتُ نحوكِ قفزتي المجنونةَ التي رسمتْ قدري، وغيّرتْ مصيري.

ما حصل بعد ذلك كان مُلفقاً، لأن المؤرخين أقفلوا الأفق، وحوّلوا أشواقي، غرامي وجنوني، إلى تبتّلٍ جاحدٍ، لأنني حين دخلتُ في متاهةِ جمالكِ التقيتُ بأكثرِ أحلامي طيشاً، وأصعَبها تفسيرا على العالم، فعاقبوني بتفسير أحلامٍ لا صلةَ لها بطيراني

في مداركِ، ولا تليقُ بخفقات قلبكِ العذب الذي، لحدّ الآن، يرنّ في جهاتِ الزمن، كما يفعلُ قلبي.

يوماً ما سنلتقي، لكن في أسطورةٍ أخرى، ليس فيها إملاءاتٌ من الخارج، وسنعودُ إلى البئر، ومعنا الذئب: شاهدُنا النبيل على البراءة..

# أسطورتكِ

كنتُ الصبيّ في المقهى، الصبي الأشقر الروح، الذي يلتقطُ أخبارَ النساء عبر الرجال القادمين من المدن البعيدة، ولا أجد فيها أخباراً عن صبيتي التي رأيتها عاريةً، كالنور في منامي، فاخترعتكِ:

اخترعتُ أخباراً تجعلُ منكِ إلهة الأزقة، مصباحَ كلّ بيت، وصرخةَ الجمال في الأفلام والروايات، ثم صرتُ أرويها، أخباركِ، على الصبية في الليل، وفي النهار كنتُ أستقبلُ صدى ضحكتكِ، لأنكِ صرتِ حقيقية جداً، لفرط ما آمن بكِ الرجالُ، رجال المقهى، الذين تسرّبتْ إليهم حكاياتي، حتى استبدّ بهم الشوق، فسافروا إليكِ في مدن الخيال، ثم عادوا بحكايات أخرى.

هكذا تكوّنتْ اسطورتكِ، وهكذا أقاموا في المقهى، ولم يعودوا إلى نسائهم في المدن البعيدة، بل صاروا يَقصّونَ أخباركِ.

# أسطورة الجندي والمرأة العارية

جنودٌ هاربونَ من جميع الحروب شاهدوكِ تسبحين عاريةً، ولما شعرتِ أنهم ينظرون إليكِ نظرةَ الرجاء الأخير ابتسمتِ، وغطستِ عميقاً في النهر، النهر الموجود في كل بلاد، المرسوم في خواطر كلّ فنان..

آه، خلع الجنودُ ملابسَهم، وتركوا خُوَذَهم مُعلّقةً على أغصان الأشجار، ثم هبطوا أملاً في اصطيادِ وجهكِ على صفحةِ النهر، لكنهم عادوا مغسولين بالدموع، فارتدوا ملابسَهم، خوذهم وغادروا.

هناك ملابسُ مُهملةٌ تحت شجرة، وخوذةٌ وحيدةٌ بقيتْ وحدَها، مُعلّقةً على غصن، من جوفها، كلّ صباح، تنبثقُ وردة، وتسقطُ على الملابس في الغروب.

خوذة الغريق الذي وجدكِ!

# صياد من ألف ليلة وليلة

أنا واحدٌ من آلاف الصيادين المذكورين في كتابِ ألف ليلة وليلة، أنتظرُ بين السطور، منذ قرون طويلة، أنْ يقلبَ أحدُهم هذهِ الصفحة، التي تبدأ معها قصتي، وأنْ يقرأ الصفحةَ التالية، لا من أجل المُتعةِ، مُتعته، وإنما لأنني أريدُ أنْ أتممَ دوري في القصة، فأجدَني مع الحوريةِ الفاتنة، التي ابتكرَها الخيال، وهي تخرجُ عاريةً من الماء، عاريةً من الحِبر، من النقاطِ ومن ضيق السطور، ثم تُعانقُني بحرارة مَن وجدَ نصفه الضائعَ أخيراً، بعدَ أنْ جفّ قلبي، وتوقفتْ حياتي بأكملها، عند هذه الصفحة، التي تراكمتْ عليها قرون من الغبار..

# من خرافاتي

جاء في الخبر أنّ امرأةً خرجتْ من كتابِ ألف ليلة وليلة، وأنّ الناس، في بغداد، شاهدوها تمشي في كل مكان، فتبعوها حتى آخر خطوةٍ في الخيال، ثم توارت، فجأة، من أمامهم، فعادوا مكسورينَ من اليأس ومن الجلال، لكن كلّ واحدٍ منهم لمّا دخل بيته خرجَ مُسرعا، زاعما أنها عندَه، ثم شقّ ثوبَهُ ليتشمّموا عطرَها، الذي كان يَعطّ من مسام جسدِهِ المسكون بعاصفةٍ من الروائح..

# لا حمامة لا طوفان لا سفينة

إلى حسن جوان

### *امرأة*

بعدما توقف الطوفانُ،

وجدنا الحمامة على كتف امرأة..

### *امرأة*

بثياب النوم، امرأة، على الزجاج، يغسلها المطرُ، وفيما يسطعُ برقُ المساء على كتف القنديل الذي نفد زيته، تكون المرأة قد اختفتْ..

### *امرأة*

كان يتنفسُ وجهكِ في الصورة الرائعة، التي لبثتْ مزروعة في ذاكرته، كحقل سنابل رشه مطرٌ غزير في عزّ الجفاف. المطرُ هذا هو بعضُ خواطره التي تمرُ، في ممرات رأسكِ، وأنتِ تكتبين

ضفائركِ في دفتر المرآة، ثم عندما ينتهي السطر الأخير، من عرس بهائكِ، يخرجكِ منكِ، ومن المرآة، فتتسربان معاً، بوثبة من الروح، إلى خارج حدود الكون، تاركين تلك الواقفة مكانكِ في حيرةٍ من أمرها، وهي تنظرُ إلى المرآة، فلا أحد هناك سوى أغنية يردّدها الشغفُ: مَن جاء، مَن ذهبَ؟

## *امرأة*

من مرآة إلى مرآة واصلتْ امرأة نقل بهائها في المرايا، تاركة في كل مرآة أثراً واحداً، يختلفُ من مرآة إلى مرآة.

في قلب كلّ مرآة امرأةٌ تسيرُ على ضوء شمعة، حتى تنطفيء الشمعةُ، فيظهرُ إثرها رجلٌ يجمعُ آثارها، من مرآة إلى مرآة، ودائماً، في لا نهائيات رحلته، يصلُ إلى امرأة أخرى..

## *امرأة*

نائمة، ولا صخبَ في الصورة، إلا صخب عنقها،

الذي عليه تنحدر حسرتي:

امرأة

مرسومة على حائط، في صحراء،

في

ثكنة مهجورة.

مساء كل يوم، إذ تعود الشياطين بأخبار بلقيس، وكيف أنها تلهثُ جَمالا، وتلمعُ كحجر كريم في قصرها اللؤلؤي.

مساء كل يوم، وأنا أصفحُ عن الهدهد، واحرّف الاسطورة، افتحً نافذتي على الليل، واغني امرأة أخرى أجمل من أن ترى من قِبل ملاك أو شيطان: أشتقُ لها اسماً من القمر، وأهيمُ في رمل جمالها المتحرك، زاهداً بأملاكي ومقطعاتي.

## امرأة

قالت: «لقد بحثتُ عنكَ في كتب السحر والتنجيم، لأنني كثيراً رأيتكِ في منامي، فأغرمتُ بجمالكَ، كما أغرمتْ زليخا بيوسف..» كانت جالسة إلى جواري في حافلة الحياة، وأنا أقرأ كفَّ القدر، منتظراً متى يصعد معنا الإخوة الأعداء، حاملين معهم البئر.. ثم حصل كل شيء بدقة متناهية، وبسرعة عجيبة، سوى أنها لم تغرم بي كما زليخا، لأنني غيرتُ الخطة، ولعبتُ دور الذئب.

## امرأة

أرى إليها تظهرُ في الشعلةِ، عندما يحشرجُ الفانوسُ في الظلام، وأنا أكتبُ تاريخها المنسي على الشفاه: تظهرُ كخيط الفجر الأول، وتمشي إلى الأفق، تتبعها الوقائعُ والأحداثُ: في كل خطوة بداية لنسيان، وعندما يطلعُ النهارُ يكون عليَّ أن أشحذ

ذاكرتي جيداً بحجر النعاس، بانتظار أن يحشرج الفانوسُ، وتظهر ثانية مع خيط الفجر.

## امرأة

أرى صوتكِ أزرق.

أسمعُ اسمكِ أبيض.

ذلك عندما يُعيرني صدرُكِ عصفوريه، فأطيرُ بهما نحوكِ ولا أصل، لأنني أكون قد وصلتُ قبل أن أصل، لأن بدنكِ كان قد حلَّ في بدني، مثلما حلَّ، في فمي، لسانُكِ: ألفظُ به اسمكِ، فيصيرُ كل ابيض ازرق، ويصير الأزرق أبيض، أو يضيع الأبيض في الأزرق، كما يضيع الماء في قطرة ماء.

## لا حمامة، لا طوفان، ولا سفينة

أغنيةٌ أوحتْ بها امرأة، ثم جفتْ داخل الرأس، قبل أن ترفعها إلى مقام الورقة، لكنكَ الآن، إذ ينبجسُ الدوارُ الذي تتوهم أنه الحمامة التي تسبق سفينة نوح، تصعد من قعر الطوفان إلى السطح، بحثاً عن زورق الاغنية:

أإمرأة أوحتْ لكَ بأغنية، أم أن أغنية ما قد أوحتْ لكَ بامرأة؟

إذا كانت امرأة حقاً، فأين روحها، أين جنونها وضجيجها، أو أين تاجها؟

أين التاج، وأنتَ، من ورقة إلى ورقة، تطاردُ أغنية أوحتْ بها امرأة، وتكتبُ أغنية توحي بامرأة اخرى؟

هكذا أنتَ دائماً، هكذا:

بالأغاني تلوذ، حين لا حمامة في الأفق، لا طوفان، ولا سفينة..

# أقمار

كنتُ رجلاً يكتبُ أشعاراً عن امرأة متخيّلة، ولما دخلتِ مدار جاذبيتي لم أنتبه إلى أنكِ كنتِ تجلياً لامرأة الخيال تلك، إلا بعد أن جذبكِ مدار آخر فرحلتِ..

أنا الآن رجل يكتبُ أشعاراً عن امرأة ذهبت إلى رجل آخر وتركتني أفتقدها، لكن هذا هو منطق الجمال:

الشِعر أبداً في تلك الأقمار المتأهبة للفقدان!

# الصفصاف

يرجعُ تاريخكِ إلى محاولاتي في عصور ما قبل الكتابة: ذات ليلة سقط البرق واشتعلت الشجرة، فخرجت عارياً من الكهف وسجدت.

كان عليّ أن أسجد لأن جسدك النار، وهيكلك العظمي جمر، ثم صار البرق يسقطُ كل ليلة، حتى لو لم يكن هناك برق، حتى لو لم تكن هناك شجرة، حتى لو لم يكن هناك ليل. هكذا لبثت أسجد في كل مكان، لأنني رأيتكِ بعيني التي لم تعد ترَ شيئاً إلا وأنت فيه، جوهره أنتِ، شكله وحدوده أنتِ.

أرسمكِ خطاً خطاً على الحيطان والوقت، مواصلاً زحفي المدمى بالنار وبالعطش نحو جمالكِ، حتى وصلتُ إلى اليأسِ عندما صرتُ على تخوم هذه الحضارة، وها أني أخرج من غرفتي عارياً وأسجد للنار التي تشتعل في مخيلتي، كلما رنّ البرق، وكلما هزّ الرعد شجرة الصفصاف العارية، في حديقة البيت..

# أبلورُ وهمكِ

أحبكِ، أنا الذي قلبُهُ مثلَ ميتم، وأخلصُ لكِ، أنا الخائنُ لكلّ القلوب التي لاذتْ بحناني. مأزقٌ أنتِ، وطريقٌ يراني غريباً، رغم أنني أتأبط أرصفته، كما يتأبط النهرُ زوارقه وأسماكَه:

معجزةٌ أنتِ، رغم أنّ حبلكِ يلتفُّ حول عنقي، مثلَ مشنقة.

ليس أكثرَ من هذا حبّ، ليس أكثرَ من هذا صمت، ذلك أني أملكُ ما لا يُمكنُ للّغات أنْ تقولَه ولا أنطق، لأنني حين جرّبتُ وآويتُكِ إلى لغةٍ تُفضي إلى الحرّية، وجدتكِ في الحرية قبلَ أنْ أبتكرَ لغتي:

جَمالُكِ يفترسُ كلّ لغة، يمرّغها باليأسِ، ينسفُها ويخطفُ له، ممّا لا يقال، ألفاظا تحترسُ كلُّ اللغات من إيوائها، لأنّ قواميسَها صُنعتْ للعبيد.

وهمٌ خارق أنتِ!

هكذا جاء في أخباركِ، وها إني أبلور وهمكِ، وأبدعكِ كبلور.

# تكثيف

ما زال يكتبكِ لأنها طريقتُهُ الفذّة في مُلاطفةِ اليأس، في دحرجةِ الأمل، مثلَ كرة، وضربهِ بمقدمةِ القدم، ويكتبكِ ما زال ليحافظَ على شعوره المرّ بالهزيمة، لأنّ ذلك مما يُمهّد الطريقَ إلى إضرام النار في القصيدة، وهو مما يُؤهّلُ الشِعر لأن يكونَ ملعباً شائكاً للمصائر.

ما زال كما هو: يسقط مُضرّجاً بالطيران، يُحلّقُ مُلطّخاً بالسقوط، وتلك وسيلتُهُ في تحويل المُمكن إلى مستحيل أو العكس.

ما زال يعبثُ بمصيره، من أجل أنْ يكثّفكِ في الوجود..!

# القلب اليقظ

أعني البلاد التي أردتُ أنْ أسكنَ، حين اتخذتُ من قلبكِ مأوى: أنا الذي هربتُ من أمان البيت إلى اضطراب وقلق الكتابة، ولمّا التقيتكِ أيقنتُ، تماماً، أنني التقيتُ بالمصير الذي لم يكتبْهُ إلا الحب على جبيني، فلم أترددْ في قبولكِ كمعجزة، لا جدوى من حدوثها، لأنني ـ أثناء ذلك الطواف حول مركز الخفّة ـ تدرّبتُ على الألم، وتسمّمتُ بفكرة أنْ يكونَ الحب قاتلاً بإطلاقةٍ طائشةٍ تُطلقينها، فلا تصيب أحداً من قاتليكِ، وتذبحني.

لن أتوقفَ عن هذا الحب اليائس، المُخضّب باخضرار الربيع، ولا عن هذا الشِعر غير المفهوم، حتى بالنسبة لي، ذلك أنّ أقصى ما يقولُهُ القلب اليقظ لتفسير العالم هو هذا التأرجح بين الرفض من داخل القبول، وبين الإذعان الذي جوهرُهُ الرفض..

# الومضة

يكتبكِ المُنهك الذي تجاوز النشاط، المهمِل الأشعث الذي يرتّب هندام الريح، والعابر المقيم في مستقبل يديكِ.

يجوهركِ النسرُ الذي يحمل في ظهره نطفة الحمامة، والبريء الجاهز العنق للإدانة، الذي تحملين معه ثقل جوهره المعقّم بالألم.

يؤنسكِ حريرُ الشك، ويحرسكِ القلقُ.

يجرحكِ الجالسُ تحت قنديلكِ بومضته الشاحبة!

# سبيكة البلور

أتمرنُ على أنْ أكتبكِ بطريقةٍ تتناسبُ والألَمَ الذي سببتِه لي، رغم إدراكي جيداً أن ما لا يطاقُ لا يمكن التعبير عنه إلا بالصراخ الذي يذبحُ الحنجرةَ، أو بالصمت الذي يحوّلُ القلبَ إلى ساحة معركةٍ، بعد أنْ ينجليَ عنها الغبارُ، تحومُ حول قتلاها النسورُ.

هكذا أحاول أنْ أتخذَ سبيلي إلى المعجزة، عبرَ حدس ما: ثمة في الشِعر منطقةٌ تجمعُ بين النحيب وبين السكوت، أو بين الصدى كأساس وبين الصرخةِ كأثر، عبر لغةٍ تحكم إغلاقَ ممرات الدمع لئلا يكون فائضاً عن حاجةِ النهر، أو عبر تنهيدةٍ وجيزةٍ تُمسكُ بقبضتِها الألَمَ والقلبَ معاً.

هكذا أفكّرُ أنْ اخصّبَ ألمي، أن أشحذَ حواسّي، وأنْ أصنعَ من خذلانكِ سبيكةً من البلور.

# الجمرة

كنتُ أتقلبُ مع الشعلة في لهبَ فانوسكِ، ومع النور الذي ينعكسُ على جسدكِ، فيجعلكِ أكثرَ صعوبة من الواقع: يأخذكِ بعيداً، إلى الأقرب من الحلم دائماً، حتى وأنا أسرحُ بأصابعي تحت غيمة شَعركِ.

قبلاتُنا لم تكن زيتا، لتفرّ النارُ إلى العشب، عشبَ رغبتكِ الهائج، في تلك الساعة التي تعلن دقتها أن الفجر يقترب من وجهكِ فيحتله بكامل جماله المتوحش، كما أن أنفاسنا لم تكن العاصفة، لكننا سقطنا من هول الحمى الذي في جوهر الحب، كغصن شعر بالدوار من ثقل الثمرة.

هناك براعم منسية تحت الأغطية، عنها أسألكِ، بعد أن تحوّلتْ سومر إلى خرائب، وهناك ترانيم لم يخطر في خيال الناي أن يعزفها، وهناك أنا، أرى إلى فانوسي يخبو، شيئاً فشيئاً، مثل جمرة مات قلبها..

# ملك قديم

تفتحين نوافذَ ذراعيكِ، وأنا عاصفةٌ دحرتْها ريشة طائر: لا أجد في حنانكِ مصطبة لأستريح، فأعبركِ غيرَ عابئ بابتسامتكِ المكسورة، وأنتِ تجمعينها مع شظايا زجاج النوافذ.

في داخلي بحّارة يرمون شباكهم إلى البحر، فتعود شباكهم بتاج ملكٍ قديم، فأسألهم: أين رأسي؟

## الجيش الباسل

لا أعرف لماذا، بعد أنْ خسرتكِ، صرتِ امرأة كلّ وقت، وتحولتُ إلى رجلٍ خسرَ آلاف المرات لكنه، هذه المرة، خسر تلك الآلاف من المرات دفعة واحدة.

لا أعرف لماذا، بعد أنْ خسرتكِ، صرتُ كثيراً، كأني جميعهم أولئك الذين خسروا..

كأني أقودُ جيشاً باسلاً من الخاسرين،
بعد أنْ خسرتكِ..

## التي

التي أعطتكَ كلّ هذا الشَعر، التي وسّعتْ الخيال، التي جعلت العيشَ مع المستحيل ممكناً، التي لعبتْ معكَ لعبة الحب فاكتشفتَ قلبكَ، التي ابتكرتكَ قبلة بعد قبلة، التي شذبتْ حديقة الجسد، التي تبرعمت على السرير، والتي تفتحت بكل عطر.

التي، فجأة، هزّت كتفيها، وانصرفتْ بحصتها الضئيلة من النسيان.

التي تركت لك نصيبكَ الهائل من الألم..

# قصيدة النسيان

لم يَخْبُ جمالكِ حتى وأنتِ تختارين جهتكِ من النسيان:
النسيانُ، لأنكِ فيه، صار مضيئاً..

# الطبل

كان يحبُّ أنْ يحبكِ، لأنّ في داخله مَلاكاً وأرادَ أنْ يُعرفَ، فداهمكِ بالحب، بالضعف وبالهشاشة، لكنه أحاطكِ بالحنان.

كان يغطّيكِ بالسر، ويخلطكِ بالعلانية لأنه يحبكِ إنساناً، ويجردكِ من كونكِ امرأة، تماماً كما فعل مع نفسه، عائداً إلى الطين، حتى أنه لم يعدْ يعتقد في كونكِ امرأة أو في كونه كان رجلاً.

كان يجمعكِ بعادات الندى، يساويكِ بالوطن، ويعبد ترابكِ في كل أرض.

كان يحب أنْ يحبكِ: أنتِ، التي بلغتْ معكِ حنجرته أقصى الغناء.

كان يحبكِ عندما اكتشفوكِ في قلبه، ولم يتردد، لأن في داخله ملاكاً وأراد أن يُعرفَ.

كان حريصاً على الطيران، عندما تقدم ليفتح القفصَ، لكنكِ ضربتِ الطبلَ، فجأة، فانطفأ الملاكُ، وأيقظتِ الحرّاس، الشيطانَ والقفصَ.

# مَن مزّق مَن؟!

احترق العالمُ، ومن الحريق رأيتكِ تخرجين، بكامل جمالكِ:
أنيقة مثل شرارة.
بكامل جمالكِ خرجتِ، وأخذتِني بيديكِ من العالم، فاشتعلتُ.

مَن أشعلَ مَن؟!

جرّبتُ أن أرسمكِ على ورقة، وحين مزّقتُ الورقة تمزق العالم، ورأيتكِ تخرجين من بين الأنقاض، وأخذتني بيديكِ من الزلزال، فتهدمتُ مثل سياج: مثل سياج تهدمتُ.

مَن مزّق مَن؟!

## هذا فقط ما يؤلمني في هذه القصيدة!

خطرَ لي أنْ أحبكِ هذه المرة أيضاً رغم أنكِ، في المرة السابقة، غيّرتِ عنوانكِ، ورغم أني ضبطتكِ تخونينني مع رجل آخر، وآخر وآخر.. حتى ينتهي العد!

لا يهم ما حصل، قلتُ لنفسي، فنحن الرجال نلعب هذه اللعبة دائماً.

ابتهجتُ لأنكِ خائنة أيضاً، لأنكِ الضعف الذي يعتري كل قوة، كما أنّ ذلك يعني أنكِ تكترثين، بطريقة ما، لسلطتي عندما أكون ثقيلاً على طيفكِ، فتمنيتُ أن تفهمي معنى أنْ أكونَ هشّاً، ضعيفاً ومخلصاً، رغم أنكِ ـ هذه المرة أيضاً ـ ما زلتِ مصرّة على أن خيانتكِ لا تعنيني، بل هي ثأر يلازمكِ، ثأرٌ لا ينتهي من الرجل الأول، الأرعن، الذي حطّم قلبكِ، وإلى الأبد..

هذا فقط ما يؤلمني في هذه القصيدة!

# أنتِ

مثل كلّ الذين نحبهم، مثل كل الذين بكينا على أكتافهم، مثل كلّ الذين جرحونا، مثل كل الذين جرحناهم، مثل كل الذين انهاروا من الانتظار، مثل كل الذين انتظرناهم، مثل كل الذين سكنونا، مثل كل الذين تركونا نرحل، مثل كل الذين تركناهم، مثل كل الذين ضربوا الحيطان بقلوبنا وحطموها كالمصابيح، مثل كل الذين حطّمناهم، مثل كل الذين استسلموا للحياة، مثل كل الذين أودعناهم جرعة شافية من اليأس، مثل كل الذين التفتوا قبل أنْ يتواروا في الزحام.

مثل كل الذين صاروا غرباء..

## فناء

إنْ لم أكنْ أنا الذي توهمّكِ امرأة له، امرأة تخونُهُ مع أول عابر.

إن لم أكنْ أنا الذي صعدتُ لأكسرَ لوح مصيري، ولما قرأتُ اسمكِ فيه ترددتُ، وسكرتُ من الوجد، مع أنه يذكر أنكِ لستِ لي.

إن لم أكنْ أنا الذي انتخبكِ قطرته المرّة، من بين كل المياه.

إن لم أكنْ أنا الذي أطلقتُ النسرَ على قلبي، وسكنتُ مع غيابكِ تحت سقفٍ واحد.

إن لم أكن أنا الذي ذهبتُ بعيدا عن نفسي لألتقيكِ، فأنا الذي عاد إلى نفسه والتقاكِ فيها..

# مثل طعنة من الخلف

كان يحبكِ، يحبُّ إخلاصَكِ المفرط للكذب، يحبُّ ولعكِ بجرجرة الذكور من شاهق فحولتهم إلى حوض غرائزكِ التي تفلتُ من أسر ثيابكِ، وتنتشرُ عارية في المدن العنكبوتية.

كان يضمّكِ إلى ذخيرته من الأسلحة التي لا جدوى من امتلاكها: يكتبكِ على بطاقة الدعوة، ويدخلُ معكِ الحياة، كعاشقٍ يعرفُ أنّ معبودته الافتراضية ستخذله في أية لحظة.

كان مصمماً على هذا الخراب، وعلى أن يشيِّع فوضاكِ كمقترح آخر للنظام لأنه كان غريباً، وخارجَ الوقت.

كان يفهم أنّ رسائلكَ له مكتوبةٌ إلى آخر لم يصلْ بعد، لكنه يتخلّقُ شيئاً فشيئاً في طرق الخيال، كما أنه يعرف أنّ عاطفتكِ المتقلبة، والمسفوحة على شبكة الانترنيت، محضُ هراء.

كان يدركُ تماماً أنكِ مخلوقة بقلبٍ هشّ مثله، وأنّ ما من طريقة لقبول الحياة بكل أوجاعها إلا بهذا الخداع النبيل.

يكتبكِ الآن متألماً، لأنكِ مازلت لا تفهمين أنه كان يغفرُ

حاجتكِ المتذبذبة، عُريكِ المتأجج بالرغبات أمام الآخرين، يفسّر لماذا تظهرين وتختفين، ومن ثم يقبلكِ: يسمحُ لكِ أن تكوني مرآة لاضطرابه، ويستقبلكِ برحابة اليائس، بشجاعة مَن يعرف تماماً أنْ عليه أنْ يسهوَ عنكِ كثيراً، مادام قد تمناكِ مثل طعنة من الخلف..

# إفتحْ يا سمسم

إنْ أعطتكَ، هذه المرأةُ، اللاشيءَ.

إن أخذتَ منها هذا اللاشيء فقط: لا تقنط، لا تتطيّر، وامنحه من الحنان كما لو كان لقطة، فقد كانت كريمة جداً.

هذه المرأةُ التي جرحتكَ، التي هجرتكَ أو تركتكَ وحيداً، كانت سخيةً، كما أنها كانت نبيلةً أيضاً، نبيلة كمطرٍ يهطلُ بدون استئذان: لقد اختصرتْ لكَ كلّ مناهج الحكمةِ، تلك التي لن تحصلَ عليها حتى لو طفتَ العالَمَ، حتى لو ربحتَ العشبة الخالدة، حتى لو جلستَ مع بوذا تحت شجرة الاستنارة، حتى لو التقيتَ بديموزي أو بكيتَ عليه مع عشتار.

ترقّبْ مصيركَ الدامي، كشاعرٍ محفوفٍ بالخسائر، فسيأتيكَ مسبوقا برايةٍ تلهثُ، كالبرق.

يوماً ما سينفتحُ البابُ، البابُ السري للروح، ومن خلفه سيهتفُ لكَ الشِعرُ: إفتحْ يا سمسم!

## الدوي

لا أعرف كيف أو لماذا ألقى القدرُ بوجهكِ في مرآتي، فرأيتُ ما رأيتُ حتى كسرتُ المرآة وتشظيتُ في كل فكرة، ولم أتوقف فتشعبتُ في كل مرآة، إلى أن صرتُ عميقاً كالسرّ، وبسيطاً كقطرة دمع.

لا أعرفُ كيف أو لماذا عدتُ إلى الخلف فرأيتُ السومريين يرسمونكِ على ألواحهم، ورأيتُ البدو يحملون تماثيلكِ ويسجدون لها، فيما الصحراء تباركهم بالغبار وبالمطر، حتى صاروا تماثيل لشدة ما طال وقوفهم تحت شمسك.

لا أعرف كيف وصلتُ إلى المستقبل ورأيتني وحيداً، أتنقل بصمت بين الأديان والخرافات والأساطير، كشاهد على جمالكِ الذي لا يمكن لأية لغة أن تكتبه دون أن يدوّي المعنى فينسف اللغة والمعنى..

أنتِ الإشارات، الخطوط المبهمة التي تركتها سيول العواطف على الصخور، عندما لم يكن الإنسان بحاجة إلى اللغة، لأنكِ عصية على التداول أو التدوين، كخضّة الجسد عندما تطيح به النشوة، وتهزمه الرغبة..

# شعري وحطامكِ

مهما كان شكل ما تتحولين إليه فأنت الأجمل لأنكِ تملكين أعنّة التحوّل، ولأن التحوّل يفتحُ نافذة جديدة على الخيال، فأتحوّلُ ـ حسب أطواركِ ـ إلى شاعر يكتبكِ كل مرة بشكل، ولا أكتفي إلا عندما أنسفُ الشكلَ وأقدمه قربانا لمعبدكِ الآهل بالتحوّل.

كلما حطّمتُ الشكل هتفتِ لي: أنا حطامكَ، فأنشطرُ بينه وبين شعري، الذي يتوق أن يكون هائلاً كما حطامكِ..

# صالة المعنى

كان ذلك عندما داهمني الفرح فوقعتُ في حب صبيةٍ خارقةٍ التقيتُها، صدفة، على إحدى صفحاتِ ألف ليلة وليلة، وقبلتُها كالمصير، لكنها اختفتْ حالما قلبتُ الصفحة.

لم يَدُمْ ذلك إلا بُرهةً قصيرةً جداً، لكنه استغرقَ عمراً بكامله.

لم أعرفْ أنّ مَن يعومُ عارياً تماماً، مع امرأةٍ، في بحيرة الحب، يلتقطُ السرّ الذي بواسطته، كلّما غاصَ عميقاً فيه، يعودُ طفلاً..

الحبّ عُشبتُنا الخالدة: جرحُنا الذي يُدركُ أنّ الشفاء ينطوي على الخضوع، لكنني لم أصلْ إلى هذهِ القناعة إلا بعدَ أنْ قتلتُ كلّ القناعات:

أكلتُ المرّ مع الشيطان، شاركتُ الملاكَ نحيبَهُ مع الناي، وذقتُ العسلَ مع اللا أحد: سكرتُ مع جلجامش في حانات أوروك، وبكيتُ مصيري الدامي على أكتاف البغي التي أغوتْ أنكيدو، نزلتُ مع عشتار إلى العالم الأسفل، هربتُ مع ديموزي في البراري: همتُ على وجهي في خرائب بابل، ثم سرقتُ حصانَ الإسكندر المقدوني، فعبرتُ الحدودَ وتجاوزتُ الزمن، حتى

وصلتُ إلى المغول، ورأيتُ إلى الجنود، جميعَ جنود الغزاة، يغتصبونَ صبية أحلامي على شاطيء دجلة، فاكتفيتُ بأنْ رسمتُ على السماء قلباً تخترقه نبلة، ثم جلستُ على قارعةِ الطرق أجمعُ الدم، الذي كان يتساقطُ من الغيوم في صحن راحتي، ولم ألتقِ بكينونتي إلا بعدما ألقيتُ نظرةً أخيرة، مودّعة، إلى الوراء، حيث تجلّى لي، في لحظةٍ خارقة، الشيطانُ والملاك معاً، وقالا لي، بصوتٍ واحد، حكمة العصور، فهززتُ كتفي، لأنني كنتُ على وشك أنْ أكونَ واحداً منهما، سوى أنني فضلتُ أنْ أكونني فطردتهما، مع كلّ تجاربي، من صالةِ معناي، ومضيتُ بعيداً، بعيداً جداً، غيرَ عابئ بشيء، غيرَ أنني لمْ أصلْ إلى هذهِ القناعة إلا بعدَ أنْ قتلتُ كلّ القناعات.

## ثانياً

# كيف تصنع أسطورتكَ الشخصية؟!

**«لقد تصوّرك لبّي، كاملاً كالبطل على أهبة القتال، فإذا بيَ أجدكَ ضعيفاً مضطجعاً على ظهركَ، فقل لي: كيف دخلتَ في مجمع الآلهة، ووجدتَ الحياة الخالدة؟».**

جلجامش يخاطب أتونا بشتم
ملحمة الطوفان ـ ترجمة طه باقر

# الهيكل العظمي للحضارة

بإمكانكَ أن تتخيّل الشمسَ تنفجرُ كبركان عثرَ على فوّهته الحقيقية، فيذوبُ الثلجُ: يذوب الثلجُ، ويسيلُ الماءُ مختلطاً بالدم، وهو ينحدرُ مسرعاً من ذروة الجبل، ثم ينهارُ كلُّ شيء لتتدحرجَ، على السفح، أجسادُ القتلى..

لكن لا ثلج في اور لترى ذلك، لا جبل أيضاً.

بإمكانكَ، إذن، أن تقترحَ عاصفة قوية جداً، عاصفة جراد، عاصفة بأسنان ومعاول: غاضبة، تهبّ من قلبٍ لاكه الزمانُ بقسوة، فتقتلع القيرَ، الترابَ والحصى، من تلك الزقورة التي يدثرها اللغزُ والغبارُ، تلهثُ سمراء، كشامة على خد النهر..

بإمكانكَ أن تتصور ماذا سيحصل لو قرّر الفراتُ أن يعبّر عن امتعاضه، كما كان يفعلُ عندما، في كل عام، يجدّدُ شبابه.

بإمكانكَ أن..

شاهد، على مهل، كيف تسيلُ الدموعُ من مآقي السومريين، كيف تتطاير الآهاتُ من حناجر الامهات، وكيف تنجرفُ الأرواحُ، الأذرعُ، والأجسادُ التي شيّدتْ الهيكلَ العظمي لهذه الحضارة.

# المسافر

أتذكر، عندما فتحتَ البابَ، عائدا من سفرك الطويل: دخلتَ بأحمالكَ، بما معكَ من أهوال، من متاهاتٍ ومن عواصفٍ، وبما في جيوبكَ من غبار، وفوجئتَ أنكَ نفسكَ ما زلتَ في غرفتكَ: لم تغادرْها قط، مستلقياً على خرائط البلدان، التي رأيتَ..؟!

# جدي، يا أتونا بشتم(*)

أتيتُ قادماً إليكَ من هناك الذي لا اسم له، رغم أنّ كلّ الخرائط تبدأ منه، كلَّ المتاهات.

أتيتُ لأسمعكَ، لأمرضَ كثيراً، لأتشقّق فيكَ، لأتخللكَ، لأنني تركتُ كلَّ وحوشي، وتنازلتُ عن صفاتي ويأسي، عن حروبي وحبيباتي، وعن موتي وبقائي، حتى وصلتكَ وحيداً فريداً، فلماذا ما حرّكتَ ساكناً؟

لماذا تبّخرتَ فجأة، وتواريتَ خلفَ لغز وجودكَ، الذي لا وجودَ له إلا عندما أصلُ إليكَ؟

ـ إيه يا عبد العظيم،

لكنكَ جئتَ حاملاً معكَ كلَّ هذا الـ (هناك)!

---

(*) **أتونا بشتم**: نوح البابلي، بطل الطوفان، الذي رفعته الآلهة ليسكن دلمون، جنة السومريين، مع الخالدين.

# مخطوطة الأعشاب الغامضة

أتونابشتم/ بورتريه شعري

مثل نبي جُنَّ من مقالب شعبه، أقطعُ الليل جيئة وذهاباً، رغم أني كتبتُ ما قد رأيتُ: هي رؤيا تجلّتْ لي وحدي، في لحظة نادرة، فأخلصتُ لها.

الطوفانُ نثر، وهو يقتربُ، والهروب شِعر، وما من مَهرب إلا الخيال: لا غابة أو بستان في هذه البلدة، وأنا لم أجمع خشباً لبناء السفينة.

ـ «إذهبْ إلى الجحيم أنتَ والشِعر والطوفان، أما نحن فسنعتصم بالجبل».

وما من جبل، وهذا ما يجعلُ الأمر محيّراً:

لم أدّعِ الشِعر، فأنا عادةً لا أخبرُ أحداً عمّا أكتبُ، مع ذلك فهم يخنقون الاشراقة، ويؤدون أدوارهم بإتقان يبعثُ على الجنون.

ـ «لماذا تفعل بي هذا، يا إلهي؟»

صرختُ في معابد «شروباك»[*] لكن لا يبدو عليه أنه كان يسمعُ، وسط سيل الحجارة: ينبجسُ من مَسام الجدران ومن النوافذ، وأنا راكعٌ أمام تمثاله الضخم، فخرجتُ حزيناً ويائساً إلى البيت، ثم جلستُ القرفصاء في زاوية نفسي.

استغرقتُ طويلاً في التحديق إلى مخطوطةِ هذه القصيدة. ربما توغلتُ عميقاً في داخلها: حفرتُ الليلَ والنهارَ ومشيتُ، محاطاً بقبائل الأرق، حيث لا أرضَ هناك ولا سماء، حتى خُيّل إلي أني قد اخترقتُ العصور، فرأيتُ ما رأيتُ: جلجامش، في الأخير، منهوشَ القلب، يطرق بابي، بحثاً عن سرّ الخلود.

مَن يفهمني؟!

إنّ الأمرَ ليس سوى تلك الأعشاب الغامضة في أقاصي الباطن، تنمو فتأخذُ شكلَ قصيدة. آه، مَن يقنع هذا المجنون أنّ الشاعر ربانٌ يتخلى عن معرفته بالبحر، طلباً لمتاهتِهِ الخاصة؟

مَن يُقنعُهُ أنّ الشِعرَ يُلقي على أكتافِهِ الهزيلة، أمتعةً ثقيلة جداً، قبلَ أنْ يمنحَهُ موهبةَ العبور فوق مياه الأبديةِ، وحيداً؟!

---

(*) **شروباك**: المدينة التي كان يسكنها أتونابشتم ـ نوح البابلي، والتي فيها تلقى أمر بناء السفينة.

# الطائر

عندما التقطتَ المظروفَ، الذي نقله طائرٌ إليكَ، ثم اختفى بسرعة في الأفق.

عندما تنفستَ الصعداء، رفعته إلى صدركَ بحنان، ثم فتحته بهدوء، فوجدتَ فيه جثة الطائر..

# الخبر

وصل الخبرُ، بعد عشرة آلاف عام، وقرأنا تفاصيله في دموع مسافر قطع الطريق، طريق الأزمنة، ماشياً على قدميه. أطفأنا الفوانيسَ والمشاعلَ لأنه كان يتعرّقُ بغزارة، فشاهدنا كيف أنّ الرحلة قد كستْ وجهه باشراقة الرسول، ثم رأينا ومضة العارف تشعُ شيئاً فشيئاً، فتتضحُ ملامحَه، وهو يصافحنا واحداً واحداً، لأن أطيافاً من الغبار أخذتْ تتبخرُ من بَشَرته أثناء ذلك، لكنه لمّا انتهى من مصافحة آخر الموكب، وهمّ بالالتفات ليتكلم مع الجميع، إنهارَ من التعب فجأة، وتفتّتَ جسدُه الحجري، وهو يسقطُ على الأرض.

هناك تأويلات لا تحصى، قراءات لا تُعد، وهو ممَا أجبرنا على أنْ ننتظرَ مسافراً آخر، يأتي إلينا بالخبر..

# عندما وصلكَ المظروف من آخر الزمان

عندما هربتَ من المرأة التي خرّبتْ حياتكَ، وحزمتَ أمركَ: صعدتَ القطار طلبا للنسيان.

عندما ألقيتَ نظرة أخيرة على ماضيكَ، ودخلتَ في كهوف النوم، بعد أن رميتَ بذكرياتكَ من النافذة: رأيتَ إليها تطيرُ، ويحملها الهواء الطلق بعيدا عن الطريق.

عندما استيقظتَ عند آخر محطة: نزلتَ، ورأيتها تنزلُ معكَ من جميع الأبواب.

عندما صارت جميع المسافرين.

عندما يمّمتَ وجهكَ شطرَ جهةٍ أخرى، لم توجدْ بعدُ، ومشيتَ حافيا، إلى أن خضتَ في وحل الألم، حتى ركبتيكَ.

عندما شعّتْ رؤياكَ،

ومرَّ نيزكٌ في فضاء غرفتكَ الباردة.

عندما سمعتَ الليلَ، في منتصف النهار، وكنتَ جالساً على رصيف مقهى، في مدينة ساحلية.
عندما وجدكَ ساعي البريد، الذي كان يبحثُ عنكَ منذ قديم الزمان.

عندما أخيراً، وبعد مماطلات، فتحتَ المظروفَ الذي وصلكَ من كل مكان، وقرأتَ الخبرَ السار، الخبر ـ اللغز، الخبر الذي تعرفه، الخبر الذي لم يهمكَ يوماً، الخبر الذي أثبتَ لكَ أنّ حدوساتكَ كانت صحيحة: أن المظروفَ فارغ، أنّ ساعي البريد لم يجدكَ، أنّ المرأةَ التي خرّبتَ حياتها هي نفسُ المرأة التي خرّبتْ حياتكَ، أنكَ لم تصعدِ القطار، أنكَ لا تجلس قرب البحر، ولا في المقهى، وأن عليكَ أن تفركَ الصدأ عن باطنكَ الذي كان مشعاً، فالليل ليس الظلام، وهو ليس ظاهرة فيزياوية إطلاقاً..

## ما هي القصة..؟!

أفتحُ كتابَ: «عظمة أخرى لكلب القبيلة»[*] فأجدني هناك، بعيداً عن أورورك، في قصيدة أقرأها لا على التعيين، ولو سألني أحدهم: ما هي القصة؟! سأفعلُ مثلما سيفعل سركون بولص: أغلقُ الصفحة لبرهة، وأنظرُ من النافذة إلى ساعي البريد: يخبرني أن البغي التي أرسلتُها لإغواء أنكيدو، مستعدة للذهاب إلى البراري، مرة ثانية، بحثاً عن أنكيدو آخر، ليس هشّاً، وأكثر صلابة أمام الموت.

ـ «اخرجْ من قنوطك، يا رجل، خذْ هذا المظروف، إنه منها: لقد طرقتُ جميع أبواب العالم، حتى وصلتُ إلى بابكَ».

لن أفتح البابَ:

أغلقُ النافذة، وأعودُ إلى مواصلة القراءة.

(*) **عظمة اخرى لكلب القبيلة**: كتاب شعري من ابتكار **سركون بولص**، والقصيدة المعنية في النص أعلاه هي قصيدة **المظروف**.

# بلاد

ماذا تكتب على ظهر المظروف؟

أيّ عنوان ينتظر منكَ أن تكونَ نبياً سيبعثُ، من غياهب الغيب، بالرسالة؟

مَن ينتظر منكَ أن تفكّ له طلسم الوجود،

في هذه البلاد،

التي تطالبكَ بثمن أوجاعكَ فيها، كلما أفلَسَتْ؟!

# قصيدة ربما

ربما دخل عصفورٌ، إلى كونكَ السرمدي الذي اجترحتَ له مجرة من الأسفار والكتب، فشاهدك تمشي على بصيص جملة، قريباً من البدء في الكهوف، أو بعيدا عن الأرض، محلّقاً في الفضاء.

ربما نقرَ باب ذكرياتك: رآك تمشي كثيراً، في السنابل، مصحوباً بأنفاس حقل.

ربما خطر له أنْ يسكنَ مقطعك الذهبي هذا.

ربما شاهدك عارياً من دون أجنحة الملاك، ثم رمق بعين ريبته مناجل وأقفاص آدميتك الغامضة، فاستدار عائداً بالرسالة.

ربما كان يحملُ رسالة، آهةً أو زقزقةً ما.

ربما ذكّرك مروره، وهو ينقل أعواد سريره من الغرفة، بوجودكَ الغريب والعابر، وبمروركَ الخاطف السريع، على سطح هذا الكوكب.

# أبي يعود إلى البيت

عاد أبي إلى البيت، ورمى عُشبةَ الخلود إلى الطاولة. لا حصر للقُبل الملطخة بكلماته التي لم يقلْها، وهو يتخذُ ركناً قصياً من المطبخ، فيما أمي تخرجُ من حجرة نومها، لتهشَّ أسئلة الجيران من رأسها الذي يفورُ كتنور الطوفان: انكبّتْ، فوراً، على حذائه الملطخ بالأوحال وبالمدن، وعبثاً حاولتْ أنْ تكشطَ منها آثارَ الطريق المؤدي إلى سيدوري، ضرّتها في النصائح.

لا شك أنه ما زال حزيناً، ليس على أوروك التي تهدّمتْ، ونخرَ عمودَها الفقري الغزاةُ والغبارُ، ولا على تلك القرون، القرون الطويلة، التي هدرها ضائعاً بين المنافي، وإنما على رحيل صديقه أنكيدو الذي كان يتسكعُ معه في الحانات وفي المقاهي، أو يغازل بصحبته نساء سومر الجميلات، في مواكب النواح على ديموزي، وإلا ما سرّ الدموع التي سالت، من محجري عينيه التائهتين، فخضّبتْ لحيته البيضاء؟

ما السبب في أنه أخرجَ مسدسه، فجأة، وصوّبه نحو الأفعى التي تسلقتْ المنضدة؟

ولماذا غيّر رأيه..؟

لماذا غيّر رأيه، كما في كل عودة، فأعاد المسدس إلى مكانه، ثم قام: لبسَ حذائه، الذي عاد نظيفاً، وخرجَ من البيت، دون أن ينبس ببنت شفة؟!

# العشبة الخالدة

كنتَ الرجل الذي طافَ الأرضَ، من بلاد مقتولة إلى بلاد منهوبة، ولم تجدْ عُشبةَ الخلود إلا في بيتكَ الأول، في حقيبةِ السفر التي تثاقلتَ عن حملها، فتركتَها تذبلُ بين كتبكَ وأوراقكَ، عرضة للغبار، وللنسيان.

# عاصفة تبحث عن أقدامها

لا أذكرُ اسم المدينة، ولا أعرفُ كيف خرجتُ منها: حدثَ ذلك آلاف المرات في مدن اخرى. في كل مدينة أجدني واقفاً، أطرقُ أحد الأبواب، فيأتيني الصوتُ قادماً من وراء أقصى نقطة في الزمن:

ـ إذهبْ، وابحثْ عن الخلود في مكان آخر.

مصطبة مهجورة، زقاق يتلّوى حول نفسه، غرفة في فندق، معسكر لاجئين على حافة بلد ينهار، حانة، نافذة قطار، أو زاوية مقهى..

صوتٌ رأيته ـ أين؟ ـ وارتعشتُ كثيراً من رعب جماله.

صوتُ امرأة ـ رجل ربما ـ يتجسّدُ أمامي بهيئة مَلاك، كلما جاءني من خلف باب:

ـ إذهبْ يا رجل..

فأذهبُ.

آه، مذ أنْ كشفتْ لي رائحةُ العشب، على طريق أجدادي، عن

كينونتي المدفونة تحت طبقات الطين والخرائب، وأنا أهيمُ في جهات العالم، مثل عاصفة تبحثُ عن أقدامها.

إنني أتشمّمه في الهوامش وفي الصمت، هذا الصوت الخاص، المفقود، والضائع خلف البحث، وقبل العثور

# قلب الدمعة

تأتي الصرخةُ من كل مكان، إلا من الجثة، لكن لا أحدَ يسمع، فعشتار صمّاء، في مجلس الآلهة: لا شيءَ يُلهبُ خيالها إلا النار، تلتهم أور، معبداً بعد آخر، حتى تأتي على الصرخة.
كنتُ الناجي الوحيد من الحريق.
خرجتُ ورأسي شُعلة. خرجتُ عارياً، وقد صممتُ أنْ أوسّعَ من معجزة نجاتي، فدخلتُ سوقاً مقفراً إلا من الدخان: سرقتُ صنارة وخيط، وسلكتُ زقاقاً جانبياً، لا أعرف إلى أين يُفضي، حتى وجدتني في نهايته، حيث بحيرة كبيرة جداً بحجم دمعة، تتلألأ مالحة، بانتظاري.
رميتُ صنارتي وجلستُ أترقب قريباً من الحافة، إلى أنْ تحرّكَ الخيط وخرج ديموزي(*) من العالم الأسفل، مشتعلاً وجميلاً مثل نيزك، فزغردتْ السومرياتُ من النوافذ، ومن فوق السطوح، لكن.. لم يبدِ عليه أنه مهتم: نظرَ إلي بعتب مَن يعرفني جيداً، هزَّ رأسه، رمى الصنارة بوجهي ثم غطس عائداً، إلى قلب الدمعة.

---

(*) **ديموزي**: إله سومري، حبيب وزوج عشتار، وهو تموز في التوراة، وهو الإله الذي بخروجه من عالم الأموات يبدأ الربيع، في ديانة الخصب الرافدينية، ومنه تطورت فكرة المخلّص في الديانات التوحيدية، وخاصة عند الشيعة الإمامية.

# رحلات

الفانوسُ يتحشرج فيه النعاسُ، وسومريون يقصّون على نساء كثيرات رحلة واحدة، لم يقم بها أحدٌ قط. كل امرأة، في الصباح، تروي الرحلة كما سمعتها.
هكذا تصيرُ رحلتهم رحلات: مسافاتٌ طويلة بين كلماتهم، غبارٌ، عرباتٌ وينابيعٌ.

بين بحة أصواتهم تنهارُ مدائن، وتقومُ بلدان: عرّافات، طوفان، ونساء موحلات.
شعوبٌ لم تخلق، يخلقونها، وأمواتٌ
يُبعثون من جديد.
أنبياء، هراطقة وعشّاق،
في نظراتهم التي تحيطُ الأفق بكامله:

لا مجال لهروب نملة، ولا لخفقةِ طير.

دخانُ سجائرهم مفاتيح، إذا العالم أقفال:

يسافرون كثيراً
أولئك الماكثون أماكنهم.

# الشاهد

إلى مريم عامر

بقيتُ حياً لأروي القصة، لكن.. لأن بعض فصولها لم تكتمل، لأن هناك حسراتٍ لم يتعرّف على بحتها الكمان، لأن هناك مدائن لم تحترق، وعذارى لم تغتصب، لأن هناك مشانق لم تُنصب بعد، لأن هناك خذلانات لم يحن قطافها..

لأن..

لن يراني أحدٌ، ولن أظهرَ، وإذا ظهرتُ فلن أنبس ببنت شفة:

أنا الشاهدُ..

# ديموزي

بورتريه شعري

لم أعدْ أحتملُ هذه الطبقات من النواح والترانيم،
هذا اليأسَ، وهذا الحنان،
هذا العبءَ الذي أفقدني خفّتي، وصار يجرجرني إلى القاع،
لم أعدْ أحتمل.

رأيتُ إليهنّ قادماتٍ من هنا، آتياتٍ من هناك. يخرجنَ من الساحات، يتقافزنَ من النوافذ، ومن الأزقة: موحلاتٍ وجميلات، يُعولنَ ويضربنَ خدودهنّ، يتناوحنَ ويلطمنَ صدورهنّ: سومريات، بابليات، آشوريات، نساء كثيرات، أمهات وأرامل، عاشقات وصبايا، تحت وهج الشمس، يتبخّرن ويتساقطنَ دموعاً وآهاتٍ، والموكبُ يقطعُ الشوارع، يكبرُ من شارع إلى شارع، من مدينةٍ إلى مدينة، يتّسعُ من قرن إلى قرن، وكلّهنّ ينتظرنَ أنْ أخرجَ إليهنّ، أنْ أفيَ بوعودٍ لم أقطعْها، فبكيتُ، ولم أحتمل..

لم أعدْ أحتملُ هذه الطبقاتِ من النواح والترانيم.
لم أعدْ أحتملُ هذا اليأسَ، وهذا الحنان.
لم أعدْ أحتملُ هذا العبءَ الذي أفقدني خفّتي، وصار يجرجرني إلى القاع.
لم أعدْ أحتمل.

أنا أيضاً، مذ كُتبتْ أسطورتي على ورق الحاجة، أدخلُ الموكبَ مع النسوة كلّ عام، وأفعلُ مثلَ ما يفعلْنَ، بانتظار خروجي، لأصرخ بكل قوتي:
لم أعدْ أحتملُ هذه الطبقاتِ من النواح والترانيم.
هذا اليأس، وهذا الحنان.
هذا العبء الذي أفقدني خفّتي، وصار يجرجرني إلى القاع.

لم أعد أحتمل..

## قصيدة الماضي

يأتي الماضي من كل مكان، وفي لحظة غير متوقعة.
أصدقاء ينبثقون، صديقات، وأماكن لم تعد مأهولة بناسها.

مدنٌ تظهر، مدن كثيرة صادفتُ فيها مهرّبين، نساء جميلات، وأشجار عارية على أغصانها ترك جنود هاربين خوذهم، وغابوا..

أحد أصدقائي، مات غرقا في طوفان نوح، نطّ برأسه فوق المياه، وطلب مني عود ثقاب:
ـ الطريق مظلمة إلى العمق!

قال، ثم اختفى!

# بانتظار السفينة

جلوساً على جبل الجودي، سمعنا أخباراً عن الطوفان، فتهيأنا لاستقبال السفينة.

كل شيء طاف فوق المياه:
التيجان، الممالك، الحمير، الأبواب، الأشجار، والبيوت.

كل شيء، كل شيء..

المد يعلو ويهبط، يهبط ويعلو، ونحن نلقي شبكة الأمل، بغية إنقاذ ما يمكن إنقاذه.
أحياناً
نصطاد أحذية، مفاتيح وأقفال.
أحياناً أخرى
نعثرُ على دمعة حارة، لا تزال حية، تسبحُ مثل سمكة، فنضيفها إلى ذخيرتنا من المأساة، حتى وصلت الطيورُ:

طيور كثيرة وصلتْ، ظلتْ تحومُ من حولنا، تحومُ وتنعقُ، تقتربُ من رؤوسنا وتصعد،
ثم..

.. وما من سفينة.

# السفينة الباطنية

منذ الأزل ونحنُ نبحرُ فوق المياه التي تهدرُ، غاضبة، بين خطوط الخرائط: ندّخنُ أو نقضمُ أطرافَ أظافرنا، جالسين القرفصاء في السفينة.

منذ الأزل، والقرون تمرُّ مسرعة، مثل قطار أفلتَ من يد المحطات، فلم يعدْ قادراً على التوقّف:
نفدتْ الصلواتُ، جفّتْ الترانيمُ، ولم تبقَ إلا هذه الأغنية، التي طالَ التردّدُ قبل أن نعزفها:

لا أحدَ في الطريق إلا العاصفة، إلا العاصفة..
وهذا الطوفانُ الذي يهدرُ مثل قطار أفلتَ من يدِ المحطات، فلم يعدْ قادراً على التوقف..

قبل ألفِ عام أطلقْنا الحمامةَ الأخيرة،
آه.. أطلقنا الحمامة الأخيرة قبل ألف عام، ولا أثرَ إلا العاصفة، إلا العاصفة..

هكذا مزّقنا الخرائط، كلّ الخرائط، واتبعنا طرقاً غامضة: كلُّ واحدٍ منا قاد سفينتَهُ الباطنية بنفسه، لا على اتجاه، حتى وجدْنا الحمامة.

# كيف ورطتني بجمالكَ؟

ما هذا البرقُ الشاحب، الذي لم يعد يُضيء الوجه؟
لا حلقة من نور حول رأسكَ،
ولم أرك تشفي المشتاق، أو تمحو عن قتيلكَ لوعته.
لماذا تطرقُ صامتاً، كأن صلاتي ونسكي،
كأن مماتي وحياتي، لا تعني لك شيئاً؟
كيف ورطتني بجمالكَ؟
كيف جرجرتني من الأهل، وأخذتني في المهالك؟
كيف أوعزتَ لي بالقيام، وبالسجود
ولماذا لا تحرّك ساكناً، لماذا لا تمسح غبارَ سفري إليكَ، ولا ترتعش لدموعي؟!
وما هذه..؟!

ما هذه اللطخةُ الكبيرةُ السوداء في جوهر قلبكَ، يا ملاكي؟!

# المفتاح

عندما اكتشفتَ أرضاً مجهولة فيكَ، لم تمرّ بها من قبل، فيممّتَ وجهكَ شطرَ منفى لن تؤنسكَ في الطريق إليه أغنيةٌ، ذكرى امرأة أو قصيدة.

لبثتَ متلعثماً تبحثُ، في خزائنكَ من العثرات، عن الكلمةِ المفتاح، كي تمضغَ ما قد تواجهُهُ من عناء الوقوف أمام أبواب ذاتكَ العميقة كالغريب، كأنكَ ما ارتحلتَ أبداً، ما أحببتَ يوماً، ما سافرتَ وما غنّيتَ..

# قصيدة اللؤلؤة

إلى ميثم الحربي

شطبتُ على ما أعرفُ من قبل، بغية أن أتجاوزني إلى معرفة أخرى. لم أعرف أنني بذلك وسّعتُ ذخيرتي من الأعباء، لكنني فرحتُ لأن وحوشي بدأت تنقص: ضمرتْ أنيابي، وخفّ جسدي، حتى طرتُ وانتشرتُ، ثم سقطتُ فتمرغتُ في كلّ وحل، كقتيل نهبتْ أنفاسه قبائلُ لا تُحصى من الدخان.

لم أمرض، فقد تعافيتُ من الشفاء وقفزتُ حاجزَ العلة، لكنني تحطمتُ تماماً لفرط ما حاربتُ، ولكثرةِ ما انتصرتُ، فلم يعدْ يشغلني أين أجد مسقط رأس المعرفة، لأنني ـ في طريقي إليها ـ أحرقتُ كل الكتبِ، ومزّقتُ جميع الخرائط.

لم أعد أذكرُ، الآن، من قلب أي امرأة شعّ مصيري الذي حفّزني على التخلّي عن اللمعان، وعلى اعتناق اللاجدوى دليلاً، أو اللاهدف هدفاً، حتى وصلتُ وعثرتُ، في لجّة اليأس والظلام، على اللؤلؤة.

# حمامة الطوفان

عادت الحمامةُ، الحمامةُ التي أطلقها أتونا بشتم، الحمامة البيضاء، حمامة الطوفان، عادت بعد قرون طويلةٍ من الطيران فوق المشانق والقتلى.

ضمّتْ جناحيْها إلى بعضيهما، ورمتْ بنفسها إلى حوض السفينة، ثم زحفتْ نحوهُ ببطء، وهو يدخّنُ سيجارته، مترنحاً من التعب ومن السهر، لكنها عندما وصلتْ إلى بُحيرةِ الدّموع التي تكوّنت بين قدميه، رفعتْ رأسها إليه، وماتت.

# أخبار المرأة التي سافرت
# على مركب أتونا بشتم

المرأة التي سكنتْ الطابق الأعلى من البيت، التي لجأتْ إليّ هرباً من الطوفان، والتي قالت موضحة، بعد أن شاركتني قنينة الفودكا، وأنهتها بجرعةٍ واحدةٍ: «لا تهمني النجاة، ولا الغرق: يهمّني هذا» وأشارتْ إلى قلبها، الذي سمعته يخفقُ بالمطر، ويضخُّ عاصفته، رياحَه، في كل الاتجاهات..

كانت مُسافرةً على مركب أتونا بشتم، لكن سجائرها نفدتْ هناك، إضافة إلى أنها رأت الناي، الذي حفرتْ ثقوبَهُ بدموعها الحارة، طافياً فوق المياه، فألقتْ بنفسها، عارية، إلى لجّة الموسيقى التي لا يمكن أنْ يتجوهرَ فيها المتألمُ، إلا بعد أنْ يَنسى أنه متألمٌ لا لشيء بعينه، لكن ألمه لا يُمكنُ أن يُنسى إلا بهذا، إلا بالقفز إلى قعر الألم بقوة.

هكذا وصلتْ إلى هذه البلدةِ المحروسةِ باليأس، وبأسوار من ذكريات غير واضحة، حتى بالنسبة لي: أنا الذي عمّرتُ

ضواحيها، غسلتُ سواقيَها بأحلامي، وعانقتها بشدة، كعاهةٍ لا شفاءَ منها إلا باعتناقها كمذهبٍ أو كديانة.

كنتُ أنتظرها لأنّ أسمَها كان مذكوراً في بطاقةِ الدعوة إلى الحياة: عندما تجد الجميعَ في انتظارك إلا حياتكَ، كما أنّ اسمَها كان مكتوباً على الأسوار، مثل نبؤة.

كان اسمُها مكتوباً، ولا أحدَ يقرأ، لأنّ اسمَها لم يكن مكتوباً لكنّ الكلّ يقرأ، غيرَ أنني لم أتوقّعْها جميلة وبسيطة، كأول فجر عاشتْهُ الخليقة.

كنتُ بحاجةٍ إليها وأنتظرُها لنتشاركَ العوم في بحيرةِ جسدينا حتى آخر رعشة، قبل أنْ نصطدمَ بالجدار ونكتشفَ أننا غارقان لا محالة، لكنها لم تكفّ، هذه المرأةُ، عن الغناء، ولا عن ضربِ الأرض بقدميها، وهي ترقصُ عاريةً، أو تبكي من فرطِ الحنين على أشياء لم أفهمها.

هناك أحلامٌ لا تكتمل سيرورتها إلا إذا ألغيتها تماماً، أو إلا إذا تبنيتها كحماقةٍ ترتكبها، في لحظةِ سُكر، أو في لحظةٍ شعوريةٍ محضة، ثم تندم عليها طوالَ حياتكَ التي لن تعودَ، بعد ذلك، حياتكَ مهما حاولتَ استعادتها، لكن هذهِ المرأة، هذه المجنونة، تُجبرني على أنْ أمشي على حبل الأمل كالبهلوان، في نفس اللحظةِ التي اقتلعَ فيها الطوفانُ كلّ شيءٍ من جذوره، حتى فكرتُ أنْ أطردها، لأنها تُخالفُ إيقاعي في تفجير المأزق، أو تحجزني داخلَ سجن فكرتي عنها، فلا أجرؤ على أنْ أرتكبَ

حماقة، حماقةً صغيرة، تؤكدني غيرَ عابيء بما يَحصلُ على ظهر هذا الكوكب، الذي فقد مغزى دورانه حول نفسهِ منذُ آلافِ السنوات. كما أنها كانت متأهبةً للطيران في متاهةِ أطوارها المتقلّبةِ، أو للقفز من النافذةِ، ومستعدة، في نفس الوقت، لأنْ تحزمَ حقائبها وترحلَ بإشارة مني.

لكنني لم أفعل ذلك: لم أطردْها، إذ لا بيتَ لي، لا طابقَ أعلى، لا قبو، وأعيشُ وحيداً، مع مصيري، في العراء.

# في طريق العودة من أتونا بشتم

إلى زعيم نصار

تستيقظ فتجد الليلَ ببدلته المرصّعة بالثكنات، وبالنجوم التي صدئتْ، لكثرةِ ما غسلتْها الأشباحُ بماء الأساطير: ذكرى انفجاراتٍ وقعتْ، ووجوهٌ كثيرةٌ خذلتكَ، كلها تدوّي معاً، فجأة، في فراغ الغرفة، وأنتَ ترفعُ وسادتكَ، كمَن يفتشُ في الصحراء عن قاربٍ، بحثاً عن علبة الدخان، فتعثر على الظلام جافاً، راسماً على شفتيه علامةَ استفهام، كما راية ترفرف في ذاكرتها عاصفةٌ مرّتْ، ذات يوم، لتكنسَ ما بقيَ من ريش الأمان في مدينةٍ منهوبة.

تفركُ عينيكَ لتتأكدَ من أنّ كلّ شيءٍ على ما يرام: لم تمسْ شظيةٌ ما بشَرةَ هذا الرحم الدافيء الذي تعيش فيه، بانتظار ولادةٍ مغسولةٍ بحنان امكَ الغرفة، غيرَ أنّ علامةَ استفهام ثانية، تظهرُ أمامكَ في المرآة، وأنتَ تحلقُ لحيتكَ، التي خالطها الشَيبُ، فتحزن لأنَّ الأفعى مازالت تُجدّد ثيابَها يومياً هناك: في القتلى،

الذين تختم المعاركُ، في كل مكان، جوازاتِهم، من أجل السفر إلى السماء.

كثيراً هِمتَ على وجهكَ في الكتب باحثاً عن خَلاص، فأزعجكَ أنَّ جلجامش أضاعَ عشبة الخلود.

ـ «لو كنتُ مكانه، لوكنتُ مكانه.. لأمسكتُ الأفعى، لأجبرتها أنْ تتقيأ، لـ..»

تصرخُ غاضباً من غبار الرعب، الذي صار يتراكم، يوماً بعد آخر، على اسطواناتِ الموسيقى، لكنَّ لفتةً منكَ إلى نافذةِ المطبخ، حيثُ الساعةُ تدقُ دقتها الكبرى، تجبركَ على أنْ تفركَ عينيكَ مرةً بعدَ مرة، لتتأكدَ من أنّ جلجامش لم يملك أنْ يفعلَ شيئاً، وأنكَ تكررُ محنتَهُ الآن، إذ تصرخُ وحيداً:

ـ ما الذي يحصل؟

مَن جاء بالليل في هذا الوقت،

حيثُ الساعةُ تدقّ دقّتها السابعة... صباحاً

# كيف تصنع أسطورتك الشخصية؟!

كان الجو لطيفاً ومنعشاً، وكان أتونا بشتم يجلسُ بهدوء إلى جواري في الحانة، غير أنه، عندما دبّتْ فيه النشوةُ وفتح الخمرُ نوافذَ خياله، بدأ يسردُ قصة الطوفان، فهطل المطرُ فجأة: هبّتْ العاصفةُ من جميع الجهات، فجرفتْ كلَّ شيء، لكنه ظلّ رابط الجأش ممسكاً بقنينة الخمر، غير آبه بالمياه، التي ارتفعتْ إلى السقف، وارتفعتْ معها أحلامُ العالم.

كنتُ أبحثُ عن مَخرج من الورطة، وكلما حاولتُ الخروج إلى الشارع كان يسحبني من الخلف، وهو يواصل سرد القصة، وعندما، أخيراً، أوقعه السُكرُ بالضربة القاضية، رأيتُ نداءاً حزيناً في عينيه، ولم أتردد، فعانقته وصعدنا إلى السطح، فيما هو ما يزال مصرّاً على السرد.

لا أتذكرُ ماذا حصل بعد ذلك، لأنني فقدتُ الوعي من شدة الإنهاك، ولمّا استيقظتُ وجدته ينظرُ إلى الأفق الملبد بالغيوم من خلف إحدى النوافذ، مثل ممثل يترقبُ، بقلق، متى ينطلق إلى

العلن من خلف الستارة، حتى حانتْ اللحظة الذهبية، آه.. تلك اللحظة الخاصة جداً في حياة كل فنان:

حلَّ أزرار قميصه، وأخرجَ من تحته حمامة: نظرَ إليها بحنو، قبّل ما بين عينيها ثم أطلقها، والتفتَ إليّ، وهو يلوّحُ بقنينة الخمر الفارغة:

ـ لن أسمح لكَ بالخروج من الحانة، حتى أعرفَ أخبار الحمامة.

هذا هو دوري في مسرحية العالم:

هكذا تُصنع الأساطير:

بالعرق، بالطيران في الخيال وبالدموع..

يا صديقي!

## الرؤيا الآن

إلى كمال بدران

دخلتُ بيتي ولم أجد فيه قوتاً، فخرجتُ إلى الناس شاهراً سيفي، إلا أنني لم أجد أحداً:

قابيل، أمام التلفاز، يدخن سيجارته، وهو يبحث، في القنوات الفضائية، عن غراب

يعلّمه كيف يواري سَوءة أخيه.

إبرهة، على ظهر الفيل، يتأمل النجوم ويرصد، عبر الرادارات، حركة طير أبابيل.

أبو لهب، بهاتفه النقال، يهاتف نيرون مهنئا بحريق روما.

هولاكو، من نافذة مروحيته، يبصق على مياه دجلة،

وعبر الفاكس يصل عصفورٌ ميت..

قبل نهاية هذه القصيدة الملعونة قرأتُ كتابي، وبكيتُ على

شبابي، ثم بسطتُ حياتي على طاولة الكتابة، وتعقبتُ دروبها،
كمن يتعب عروقَ زلزال على خارطة ممزقة:

لا أحد،

لا اثر،

لا شيء،

سواي أنا:

أنا الذي كسرتُ سيفي، ودخلتُ بيتي مجهشاً بالبكاء.

## متاهتكِ

كان طريق قطاركِ يسير وفق خطة لا يعرف أحدٌ، حتى أنتِ، مَن صمّمها، وكنتُ الراكبَ الوحيد الذي لا يعنيه الوصولُ إلى مكان، كأنّ وجودي في متاهتكِ معجزة تحميني من وجودي في العالم، وكنتُ لا أحبكِ فقط، وإنما أحبُ أنْ أتوهَ كما ينبغي لتائهٍ أنْ يتوه، فأحتكر الضياعَ إلى الحد الذي لا أدرك فيه ما هو الفرق بينكِ وبين المتاهة!

لكننا افترقنا في الأخير. لا أعرف كيف أو لماذا، ولعل هذا هو الجزء الأكثر غموضاً من الخطة، خطتكِ، التي تصرّين على أنّ أحداً ما صمّمها، وأنكِ لا تعرفينه، رغم تنفيذك لها بدقة.

كان هذا مؤلماً، وكل ما أتذكره الآن هو أنني فتحتُ قنينة فودكا، وغنيتُ وبكيتُ حتى الصباح، ولما نفدتْ سجائري استسلمتُ للنعاس، فنمتُ طويلاً على مصطبةِ آخر محطة.

حين استيقظتُ وجدتني أكتبُ هذه القصيدة التي لا أعرفُ كيف أنهيها.

# جلجامش

بورتريه شعري

هذا هو قدري الذي أين ما وليتُ وجهي وجدته جالساً بانتظاري، فأجلسُ إلى جواره لأنه، هو الآخر، يحتاج إلى المواساة، فهو قدري الذي كلما فرّ من قدره وجدني بانتظاره، وهو مما يعطيني سبباً هاماً للشعور بالحزن النبيل، الكافي لأن أسكر في الحانات، لأن أطيرَ من قلق إلى قلق، لأن أكتبَ قصائد وأهملها، ولأن أقعَ في حب الخائبات: خائبةٌ تقودني إلى خائبة، ومن خلفي موكبٌ من ألف سيدوري(*)، يقرأن عليّ من كتب النصائح.

الآن،

بعد أن قبضتُ على عشبة الخلود، عليَّ أن أهبط النهر عارياً لتأتي الحيّة وتسرقها: هذا هو الدور المأساوي والممل الذي عليّ أنْ ألعبَهُ في مسرحية الوجود.

---

(*) **سيدوري**: صاحبة الحانة، التي تنصح جلجامش بالعدول عن البحث عن العشبة الخالدة ومقابلة اتونا بشتم.

# ليس ثمة ما نفعله يا أنكيدو

تعقّبتُ دروب الخلاص فابتكرتكَ لأنني أحتاجُ إلى صديق، والآن سأمحوكَ لأنكَ أنبل مما ينبغي، كما أنكَ صرتَ منافسي الوحيد على الخلود، ولأن توهجكَ مما يتلعثم بحضرته الجَمالُ.

بكيتُكَ في الأسطورة، لأنني لن اشفي منكَ إلا بهذا المقدار من الصدق، أما الآن فدموعي لم تعد تنتمي إلى سلالة الشجن: لقد جفّت بحيرةُ الحنان في روحي، وقلبي لم يعدْ يعرف إلا قسوة البرد، وهجرة العواطف.

ها أني تائه، ومفلس. لا موكبَ عزاء من أجل ديموزي أغازل، في نهايته، عشتار أو إحدى الكاهنات: لا جميلات، لا ساحرات، ولا عرّافات. أما هذا الفرات، أما هذا الذي ابتلع الماضي، ابتلع الأسوار والمدن، هذا الفرات الغاضب، هذا الفرات الماكر، فلم يعدْ قادرا على الفيضان.

القطرةُ لا تختصرُ ذاكرة الماء، أما الطوفان فيمكن اختصاره بدمعة.

وحدي أنعبُ كالبوم، عند خرائب أوروك(*)، وأنا أشطبُكَ من ذاكرة الطين: اعذرني لا أريد منافساً شريفاً. سأقيمُ في الحانة، مع سيدوري، وهناك سنبيعُ الألواح، شرف سومر وشمسها، على المستشرقين.

(*) **اوروك**: عاصمة سومرية معروفة، حكمها جلجامش، تقع الآن في بادية السماوة، ومنها بدأت مغامرة البحث عن الخلود.

# الأنذال

الشجرةُ، في الحديقة، لا تهتزَ، ساكنة، رغم الإعصار الذي يقتلعُ أوروك من جذورها.

الفراتُ يرتجفُ، مثل خيط، تحت الجسر.

الأوراقُ تتطاير، الكلماتُ، واستغاثاتٌ تفلتُ من الحِبر، فترتبكُ السطورُ.

يوماً ما كتبتَ: «يتركزُ الجمالُ في أحزان غامضة لكنها تلهثُ، رغم سُمك الظلام، كالذهب» أما اليوم فلستَ تذكرُ أين، لماذا كتبتَ ذلك، وها أنتَ عند باب الحانة، حيث سيدوري منكبّة على تأليف كتابها في النصائح، تبحثُ عن المفتاح، ولا مفتاحَ سوى الريح، تقطفُ بمنجلها الأعشابَ، وتقلبُ بمزاجها القواربَ، كلَّ القوارب التي أبحرتْ في مخيلتكَ.

لا مزاج للسفر صوب أتونا بشتم، بعد نصيحة سيدوري، مع

هذا الإعصار، مع هذا الغبار الذي يعبثُ بالتقاويم، ويمزّق الأزمنة:

لا ظل، لا فيء تحت هذه الشجرة الميتة.

خلف الباب تقابلُ حياتكَ الذي لم ترها منذ مدة طويلة، لكنكَ إذ تكتشف أنّ مراثي سومر، ينابيع المعرفة، والمعاني المفقودة للكون قد كستْ بدنكَ ببدلة الطير المهاجر أبداً، تتذكرُ حفنةً من الصعاليك والسكارى، أنكيدو، الحانات، والعزلة التي تشي بكَ مأهولاً، غير أنّ هناك ما هو أهم ينبجسُ مثل هلال مكسور، فجأة، من بين غيوم ذكرياتكَ المهجورة: الأنذال،

آه،

الأنذال،

الأنذال الذين شاركوكَ مقصورة السهر في أغنية، ثم ترجلوا منها دفعة واحدة، تاركين حناجرهم على مائدة الذكرى، التي ترشَها بالشمع كلما عنَّ لكَ أن تحتفلَ بكل الأوسمةِ الصدئةِ على صدركَ، بكل دمعةٍ ذرفتها بحرارة، بكل الصفعات، وعند هذه الأخيرة: عند هذه الأخيرة فقط تتلمس خديكَ، فيتوقف الإعصارُ عن جَلد المدينة، وتهتزّ الشجرةُ بعنفٍ في الحديقة.

# الأغنية اليائسة

إلى خالد المعالي

تأخذك أغنيةٌ إلى النبع الأول، حيثُ الرمل مثوى أجدادكَ، وحيث الصحراء تعصفُ بالقوافل، لكن أغنية أخرى تجرجركَ إلى البحر، حيث الموجة حافلة بكل شيء إلا غرقكَ الذي تريد: نائماً كأبطال سومر، على وسادةٍ من تُراب: حول رأسكَ تحومُ غربان، والكلماتُ تنهشُ قلبكَ في البرية..

هناك صيحة تنتظركَ في قعر حنجرة أكلها الدودُ، وهناك موسيقى تأبى أن تمرَّ بها القياثرُ.

إنْ أيقنتَ إنكَ خسرتَ كلّ شيء، وأن لا أحد: لا امرأة، لا صديقَ، لا قصيدة، فثق أنّ أملاً ما يشعُّ في ما أحصيتَ من خسائر:

أنّ قوةً فيكِ لم تكتشفْها بعد، أنّ بسالةً يائسةً ستعصفُ،

وأنّ هناك خسائرَ أخرى تنتظركَ في شعور آخر، لم تطأ أرضه بعد!

# نظفوا الورقة

هناك مقطعٌ تائهٌ من الجنود، أنقله من ورقةٍ إلى ورقة، تاركاً للصحراء أنْ تفورَ بنيران عزلتها، عسى أنْ تنبجسَ، من بياض الأوراق، أفكارٌ لا تقودني إلى الرمل ثانية.

لستُ أنوي الإقلاع عن سرابي الخاص، فما هو مطلوب لا يتعدى الحفاظ على الهزيمة، إن لم أتمكن من تعميقها إلى هزيمةٍ أعمق.

أحبُني في اليأس، في مُعاكسةِ الظروف، وفي تحويل الحقائق إلى ترهاتٍ صغيرة، لأنّ الضحكَ ليس الفرح، الألم ليس الدمع، والشجاعة هي ما تنقص المنتصر، فالخائب سلفاً لا يخشى الوقوفَ عارياً أمام مرآةِ نفسه.

ما أحتاجه ليس الشيءَ بعينه، وليس هو اللاشيء: إنه في العصيّ على القول، في الممكن من اللاعيش، كما أنني قد صممتُ شكلَ انتقامي: أريدُهُ يأخذُ شكلاً خالياً من الشكل، مثل ليل

مُفرغ من الليل، أو مثلَ جرح هجر الألَمَ، مستنكفاً، في نفس الوقت، أنْ يكون ندبة.

أليس النصرُ شكلاً من أشكال الخراب؟

أصلُ بالجنود إلى آخر ورقة. أرى إلى نفسي بينهم، ولا أحرّك ساكناً: مَن هذا، في الأخير، سواي؟ ومَن يفهمني في هذه اللعبة، سواه؟

أرسمُ ثكنة ثم أنسفها:
أرسمُ الجنود حولها، آمرهم برفع الأنقاض.
أصيحُ بهم: نظفوا الورقة!

# قصيدة الذعر

أرتبُّ هزائمي في الحب حسبَ كثافة الشِعر فيها، وأفحصُها بعين مدرّبة على الشك: أمشي متبختراً، أمام الصف، صفّ هزائمي المحاط بأسلاك فرح طفولي عابث، كقائد يخطط، بدقةٍ، لخسارته، لكن هذا مجرد مظهر زائف، ففي جوهر هذا كله هناك أنا الذي يَشعرُ بالبرد، ويرتجف من الذعر أمام الورقة..!

# العالم بين كتفين هزيلتين

إذا هربتُ إلى الشرق، قاد خطاي إلى الغرب.

إذا يممتُ وجهي شطر الجنوب، وجدتُه مع الشمال، بانتظاري.

يعرفُ أنّ أكتافي هزيلة، لكنه يصرُّ على هذه اللعبة: أسقطُ، ثم أقوم وأمشي، ذاهباً إلى هناك، آتياً إلى هنا، فلستُ أعرفُ إلى أين وجهته.

أدحرجُه، أحياناً، مثل تفاحة.

أستدعي امرأة. أغويها فنأكلُ التفاحة، لكن عبثاً: لا الشيطان، لا الملاك، لا أحد. لقد تغيّرتْ السُنن، فالكل في العالم،

والعالمُ، بين أكتافي، يلاعبُ ساقيه..

يا للمرارة!

يأتي القتلى يوميا، يطرقون نافذتي،

ثم يلوذون بالفرار.

تأتي أمهاتهم في موكبٍ من الأحجار: يتركنَ صيحاتهنّ تحومُ حول رأسي، بعد أنْ يختفي موكبهنّ في الظلام.

أنني أرى في ملهاتي جيشاً من الخائبين، يأتي مسبوقاً بضحكة لا تنوب عن الفرح، لكنها نشارة غربته: أولئك هم ملاذي.

أدعوهم لنعتليَ ندبة الجرح.
واحداً بعد آخر نسكبُ أرواحنا في العالم:
نسكبُ العالمَ في الكأس، ثم نشربُ الكأسَ.

# في صحة ملاكك السومري

ربما آن أن تجرؤَ على استلام أوسمةِ خيباتكَ الرائعة، فتنسحبَ كأي جندي مجهول من المعركة، وهناك ـ عندما تكون وحيداً ـ ابتسمْ ابتسامة الظفر، فليس أبهى من أنْ تكونَ مهزوما في عالم ابتذل فيه المنتصرون أنفسهم.

تشبّثْ بقشّة محاولاتكَ اليائسة التي جعلتْ منكَ بطلاً أخرقَ يرمي أعداءَهُ، من خلف غرفٍ محصّنة، بسهام من ورق، بكلماتٍ وبقصائدَ ذابلة، وترنّم بفشلكَ النبيل، فليس النجاح في أنْ تكونَ خائباً حتى العظم، أمراً هيناً.

تنفّسْ عميقاً.

في داخل صدركَ عاصفةٌ عاتية، تقتلع أحشاءَكَ من أجراسها، فتخفق أجنحةُ ملاككَ السومري، لكن غرفتكَ خالية من الهواء.

أما إذا متَّ فلا تيأس: هناك أزهارٌ ستنمو عند أقدام تمثالكَ المهمل، الذي لن يعرف أحدٌ أينَ مكانُهُ، وسيأتي شاعرٌ كسول،

ليقطف منها زهرة، ثم يذهب في طريقهِ إلى موعده الغراميّ الأول مع امرأة، وسيفقدها ـ مثلك تماماً ـ في ظروف غامضة.

لا تجزع، فلن تكونَ وحيداً.

جنود جرحى، جنود خاسرون، جنودٌ يلمّعون أوسمة هزائمهم، سيرفعون حناجرهم بالغناء الجميل، جالسين في ظلال تمثالكَ.

# أغنية جان دمو

أودعتُ المَلاكَ رسالتي، وتألمتُ كثيرا لرؤيته، وهو يتهدم من ثقلها.

ماذا عليّ أن أفعلَ لأخفّف عنه وطأة سقوطه في الشَرك، إذا كان الشِعرُ ينطوي، بطريقة ما، على طاقة من الحرية الوعرة، من شيطنةٍ ملائكية، ومن الجَمال المدوّي، الذي لا يُطاق..؟!

# المنفي

بعد عدة خطوات تصل المدينةَ، لا تلوي على شيء، سوى أن تستعيدَ نشوةً غامضة اجتاحتكَ وأنتَ تمشي، ذات يوم، في أحد شوارعها، عندما طرق سمعَكَ النايُ يعزفُ امرأةً موحلة تشرقُ بوجهها القمري من بين البردي، حيث كان يعيشُ أجدادكَ..

مروركَ ذاك كان عابراً ثم صار مقيماً فيكَ، فأخذته معكَ إلى أهلكَ، وهناكَ، وأنتَ بينهم، شعرتَ بكَ منفياً منذ الولادة.

# مثل ملاكين في قفل

عندما تمشي وحيداً، في البرد، قد تعثر في جيوبكَ على مفتاح هذا الكون، فيما الضبابُ المتصاعد من فمك يحولكَ إلى لغز يحثُّ الكونُ على أن يضع يديه، في جيوبه، بحثاً عن مفتاحكَ..

كلاكما في محنة، مثل ملاكين في قفل.

# أغنية ما

عندما تكون على مقربةٍ منكَ: لا أحد يفصلُ بينكَ وبينكَ، واغنيةٌ ما، فَرِحَة أو حزينة، أو لا فَرِحَة ولا حزينة، تنبشُ أرضاً مجهولة في باطنكَ، لم تكتشفها من قبل، فينعكسُ اللؤلؤ في عينيكَ لتصبحَ جروحكَ مرئية، وأنتَ تمشي واضعاً يديكَ في جيوبكَ: رأسكَ ليس بين كتفيك قطعاً، لا تلوي على شيء سوى أن تمشي واضعاً مصيركَ في مكان لم تصطلح عليه اللغة: لا خلفك أو أمامك أو تحتك، ولا هو هذا الذي يرفرفُ فوقكَ، مثل علمٍ مكسور، فترفع بصركَ نحوه شامتاً بمَن انتصرَ وبالمعاركِ..

ها أنتَ تسيرُ فيكَ، كنبضةٍ وجدتْ الطريق، أخيراً، إلى قلب العالم.

## قصيدة نثر عن الطوفان الأخير

من صنبور مياه، في الفندق، سمعتُ صرخة أتونا بشتم، فهززتُ رأسي بيأس: نظرتُ بحزن، من النافذة، ورأيته منهمكاً بتحطيم أشجار الحديقة بفأسه الضخم، ثم تذكرتُ أن دوري في القصة هو أن اعتصم بجبل، عندما يفور التنور، فلم أجد بدّاً من الصعود إلى سطح البناية، والجلوس بانتظار إشارة من المُخرج، كي أموت غرقاً..

أعترفُ أنني مللتُ من هذا، لكن ماذا أفعل.. كي أنجو من الإفلاس، ومن شعوري بالخزي نتيجة خيانات عشتار المتكررة مع أصدقائي، وكيف أتخلص من ثقل الزمن؟!

## كيف تفوز بوردة؟!

عاد الجنديُّ الذي قُتلَ في جميع الحروب إلى قريته الصغيرة، ولم يعبأ بالحوريات اللواتي ينتظرن، أو بالصبايا: يلوّحن له من على السطوح، ومن خلف النوافذ.

الأبوابُ المفتوحةُ أمامه فتحتْ جرحاً غامضاً في داخله، لكنه لم يحرّك ساكناً، ومضى في طريقه غير عابئ بالرايات أو بالأهازيج التي حاصرته من كل جانب.

لم يتوقف ليندهشَ بالمصاطب أو بالحدائق أو بالجسور، لم يشربْ من أنهار الخمر أو اللبن، ولم يدخل قصرَهُ المشيّد من أحجار اللؤلؤ.

كان ينظرُ إلى كلّ شيء بعينين يائستين: يهزُّ رأسه، وهو يطوفُ الأزقة كالسائر في نومه، حتى دخل بيته أخيراً، ولمّا لم يجد أحداً، اكتفى بأنْ يدخلَ إلى الحديقة، ولبث متردداً طويلاً عندما فكّر في أنْ يقطفَ وردة من الشجرة التي غرسَها بصحبةِ حبيبتهِ مرة، لأنّ الجرحَ الذي في داخلِهِ، الجرح الغامض، بدأ ينزفُ ألما لم تسببه له، من قبل، أية قنبلة أو قذيفة مدفع، أية طعنةٍ

من الخلف أو رصاصة، فأسند ظهرَهُ إلى السياج: أشعل سيجارة، ونظرَ إلى فوق، حيث الدخانُ يشكّل دوائر عصية على الفهم، ترتفع بهدوء فوق رأسه، ثم تختفي شيئاً فشيئاً.
قبل أنْ يحزمَ حقيبته، ويعودَ ثانية من حيثُ جاء، انخرطَ، فجأةً، بالبكاء.

# نبي متأخر

إلى كريم راهي

عثوركَ على تكاملكَ في تمزقكَ، وفي تشظّيكَ..
كن أعمى يمشي على ضوء يديه المقطوعتين، وستصل.

لا يهم إن طالبوكَ بمعجزة، ولم تحصل، لأن أنبياء لحظتكَ الشائكة ليسوا بحاجة إلى هكذا ترهات.

قدّمْ قلبكَ كبرهان قاطع، فما من أعجوبة تفوق بقاءه نظيفاً، كما أنه لا مفرّ من الأثر، ثم بعد ذلك.. سيّان إن حصلتْ المعجزة أو لم تحصل:

في كل الأحوال سيأكلون قلبكَ، وهاهم قد توّجوكَ مطروداً من الحفلة، فلا تجزعْ..!

# الآن، ارفعْ صيدك الثمين بالقصائد

قل: «شكراً» لكل هؤلاء الذين، بعد أن غادروكَ، استعدتَ عافيتكَ، وصرتَ وحيداً..

كل هؤلاء الأصدقاء الذين طاروا في نسيانهم الخاص.

كل تلك المدن التي تعتعك النفيُ على أرصفتها الموحلة.

كل تلك القرى التي تعرفُ مهربيها، وألوان ثياب صباياها.

كل تلك الحدود التي اجتزتها، كعاصفةٍ تركضُ خلف أقدامها.

كل هذه الوحدة، التي تجعل منكَ بلادا شاسعة، مشحونة أبداً بالغرباء..

قل: «شكراً!»

شكراً أيها المنفى، لقد رأيتُ أن لا أقفالَ ولا مفاتيح هناك: كل الأرض منفى.

شكراً أيها الحزن: لقد قلّمتَ الشجرة، ليكون طيران العصافير، من حولها، أنيقاً

شكراً أيها الإفلاس: لقد آخيتني مع الذهب.

شكراً أيها الجلاد: لقد أعفيتني من الراحة مع القطيع.

شكراً أيها الناي: لقد علمتني أن أعزفَ الشِعر من خلال الثقوب التي حفرها الخذلانُ في قصب حياتي..

قل: «مرحباً» للجروح التي وهبتكَ هذا الوهج المبارك.

قل للخيبةِ أن تقيمَ معكَ في نفس البيت، مادمتَ قد عرفتَ، من خلالها، الطريق إلى شجرة الاستنارة.

قل للعميان: إن الظلام ليس الليل، بل هو القلب.

الآن

ارسلْ دلوكَ إلى قعر هوّتكَ الداخلية،

ثم

ارفعه بصيدكَ الثمين من القصائد

## ثالثاً

# مرثية إلى بغداد من شاعر سومري
# في ساحة الميدان

## (بغداد، عندما القصيدة نثراً)

إلى الشاعر جمال جاسم أمين

ها أني أكتبُ قصيدةَ نثرٍ لا تقولُ أو تقولُ شيئاً، رغم أني أطمحُ أن تكون عنواناً لمجموعتي الشِعرية: أريدُها أن تشي بلحظةٍ حزينةٍ، وبوعي مضطربٍ، متلاطمَ الأمواج: لا قعرَ له، فيما اللؤلؤةُ هي سطحه،

لكن

هل من الضروري أن تقولَ القصيدةُ شيئاً ما، كي تأخذ زينتها؟!

وحدي في ساحة الميدان، بلا سجائر أو نقود، مثل نسرٍ جائعٍ: ممنوع من التحليق حول أسوار الكلام، أبحثُ عن فريسةٍ أثرثرُ معها، كي أتلافى السقوط في كمائن التفكيرِ في هذه الهواية الحزينة، فالشِعر مسألة شخصية جداً، لا تعني أحداً: إنه مرضٌ كلما تقدّم بنا العمرُ صار وكراً لألم لا يطاق، لكنه ممّا يرفع الانسانُ فوق ذاته، أما التصفيقُ فليس إلا سلّم الهبوط نحو الدرك الأسفل من العافية.

ما الشاعر، في هذا الزمن الكافر، إن لم يكن غائباً في حضوره،

مثل ساعة يأوي إليها الوقتُ، حتى وإن كانت محطمة، تحت الأقدام، وعاطلة؟!

مَن سنّ قوانينَ النشر؟

مَن أوكلَ إلى هذا أو إلى ذاك مهمة أنْ يضعَ الأوسمة، بأية مناسبة؟ وأيّ معدن يعادل الكنز المخبوء تحت طبقات الكتابة؟

لماذا يجب على الشاعر أن يُصدر مجموعة شعرية، كي يتم الاعتراف به من لدن شعراء لا يعبأ بهم أصلاً، كأن تجربته في تخريب قصائده، قصيدة بعد قصيدة، ليست مجموعة شعرية فريدة، لا تقول أو تقول شيئاً؟!

ـ «يا للسخافة!

صار الصبيانُ شيوخاً، دون أن يصحبوا الطوسي في محنته، وها هم يُثقلون ظهر قصيدة النثر بمتاع القريض، لكن إذا كانوا لا يرون أن رامي السهام، في الكهوف، هو نفسه الواقف خلف المنجنيق، عند أسوار بغداد، إذا كانوا لا يرون أن رامي المنجنيق هو نفسه رامي البندقية، وإذا كانوا لا يرون أنّ رامي البندقية هو نفسه كما يتجلى الآن، على شاشة التلفاز، بهيئة ذئب يرسلُ، بلا توقف، سيلَ لعابه في نهر الوعي الجمعي للخروف، فكيف يفهمون بغداد، عندما القصيدة نثراً؟!»

أسألُ ذلك، وأنا أهزُّ رأسي، ثم أتلفتُ، يميناً ويساراً، خشية أنْ يكونَ قد سمعني الشعراءُ الكبار المسموحُ لهم بالتحليق حول الأسوار.

ـ «لقد شحبتْ هذه المهنة..»

تعلّقُ فاكهةٌ عجوز تدخنُ سيجارة، على الرصيف، أجلسُ إلى جوارها: تضربني على كتفي، ضاحكة بصدق، فتطفرُ أسنانُها الاصطناعية، وأنا أقترحُ عليها بجدية مَن قرأ الماضي والحاضر والمستقبل:

«لقد أفلِتْ شمسُ جَمالكِ، التي كانت تشرقُ في سماء هذه الأزقة، يا صديقتي، فلِمَ لا تجرّبي العملَ في سوق السياسة؟».

حقاً،

إنني أستغربُ من النساء اللواتي فقدن الأملَ، لِمَ لا يشعلن الشموعَ للعيارين، ولشطّار بغداد، بدلا من الأمين أو المأمون؟

وما دام تيمورلنك سيصل، بعد هولاكو، كما هو مكتوب في الصفحة التالية من كتاب التاريخ، لِمَ لا تترقبُ الأمهاتُ الخائباتُ ظهورَ المخلّص بهيئة شاعر مفلس؟

لا نقود، لا خمر، لأحسمَ هذه المسألة: الساحة تقفرُ، والباعة يعودون، من شارع المتنبي، متأبطين خواطرَ مفخخةً بحشرجاتٍ

من سطور الكتب: تنفجرُ مع أول كأس هناك بعيداً، في الضواحي، فيما الساعة تشيرُ إلى عشتار: تنظرُ إليَّ من الشُرفة، وأنا أتسكعُ وحيداً: بيدي دمعة، هي كل ما أملكُ من زادٍ لقطع المسافةِ التي تفصلني عن الصباح.

آه، عشتار، هذه الآلهة الشبقة، التي تطاردني أين ما حللتُ. لا أعرفُ حضارة لم تضعْها في المقدمة من فاتناتها، لا أعرفُ بلاداً خالية من ضحاياها، لكنني سأشربُ الدمعة، وأسكرُ على نباح الكلاب الذي ينتشرُ في الساحة، فعشتار لن تختلط بالشعراء اليائسين، الذين يُبحرون في العالم على متن زوارق مصنوعة من أوراق قصائدهم.

هنا كان عقيل علي، في أحد الأزقة، يسكرُ في «حانة حنين»: يغمسُ قصائده في صحن صحته الرديئة، ويتلو على السائرين في نومهم تمائم تصدُّ عن حامليها كلّ شيء إلا الأمان، وهناك الماضي وزعيم نصار، في الزاوية، يتبادلان الغصة، الكؤوسَ والأسرار، وذات ليلة طردونا، كما لم يطردوا الأمين والمأمون، بعد معركةٍ طائشةٍ بالقناني وبالمسدسات، استمرتْ طويلاً، ولم تتوقف، حتى بعد أنْ وصل المغول، حتى بعد أن سحلوا بغداد في الشوارع: طردونا من الحانة، من الحانةِ طردونا، فخرجنا محمولين على أكتافِ الإفلاس، لنقابلَ جان دمو في حديقة

اتحاد الأدباء، عائداً من استراليا بعشبةِ الخلود، وقد حفر خندقاً عميقاً من الضحك المرير، ثم جلس فيه مدافعاً عن أملاكِهِ بشجاعةِ المحارب الخاسر منذ أول معركة: يملكُ دمعة واحدة.

ـ «إنها دمعتي التي شيدتها بدموعي.

أعمالي الشعرية الكاملة هي،

وحياتي»

كان يهتف.

«هي مختصر ألواحي الطينية، التي ضمّنتها أسفاري إلى أتونا بشتم، ولم أكتبها كلها، لأن الخلودَ لا يساوي كل هذا الحنان».

فيما كانوا يرمون سلة عظامه، بالمنجنيق، إلى السماء، وخلفها، حتى آخر نجمةٍ مضيئةٍ، يقفز موكبٌ شاسعٌ من الكلاب، ثم يهبط نابحاً في ساحةِ الميدان، حيث أمشي وحيداً، أبحثُ عمّن يطردُ الأسئلة، كي أتلافى السقوط في كمائن التفكير بهذه الهواية الحزينة: كتابة الشِعر، ولا أفهم، الآن، كيف خطرَ لي أنْ أنتقمَ من الشيوخ والصبيان معاً، من التاريخ ومن المناهج، بأنْ أكتبَ هذه القصيدة فوق جلْدِ لحظتي التي شوّهت خارطتها السياطُ، لكنني أذكرُ أنّ حكمة جان اخترقتني عميقاً، فلم أسكر، لكنني ثملتُ حتى الصباح، ممّا أتاح لي أن أرى سركون بولص عن قرب: يمشي وحيداً في الصحراء، وفي مخيلتِهِ سربٌ من

العبيد، منهكينَ خلف الأسوار، وهم ينقلون حسرات أمهاتهم لتشييد زقورة أور، عند ذلك رأيتني أفرُّ من بين يدي أبي طفلاً، ألهو بضرب العظام ببعضها في المقابر الملكية، حيث عشتار تحومُ من حولي، مثل طيف، تخطفني مع أثمن ما حفظتُ من ترانيمَ سمعتها، وأنا ما زلتُ نطفة في رحم المعابدِ السومرية.

«هذا حال مَن تهرّأتْ شرارة فيضه!»

أقولُ مع نفسي، وأنا أبسطُ يدي لأطمئنّ على سلامةِ الدمعة.

## إشارات

* **ساحة الميدان**: قلب بغداد في سنوات ما قبل الاحتلال، وهي الآن العالم الأسفل للمدينة!
* **شارع المتنبي**: شارع الثقافة الورقية، حيث باعة الكتب، وملتقى عموم مثقفي العراق في يوم الجمعة من كل أسبوع.
* **الطوسي**: خواجة نصير الدين الطوسي، المتكلم والعالم الفلكي، وقع أسيراً، بيد جيش هولاكو، وهو في طريقه لاحتلال بغداد، وكان عليه أن يثبت نفسه عالماً كي ينجو من القتل.
* **حانة حنين**: تقع في أحد أزقة الميدان، وكانت ملتقى معظم

الشعراء المفلسين، سنوات الحصار، كما أنه كانت ملتقى شقاوات بغداد ومخبريها.

* **عقيل علي، زعيم نصار**: شاعران عراقيان معروفان، صديقا الشاعر ورفيقا تجربة هذه القصيدة.

* **الأمين والمأمون**: الإخوة الأعداء في الدولة العباسية، وصراعهما على السلطة أبرز وطنية الشطار والعيارين ضد الاحتلال.

* **جان دمو، سركون بولص**: شاعران بوهيميان راحلان، يعتبرهما الشاعر من آبائه.

* **عشتار**: آلهة الحب والجمال، المتقلبة الأطوار والمزاج، وهي الأنثى بطلة قصائد الشاعر في جميع أعماله.

* **أور**: عاصمة سومرية تقع على مقربة من مسقط رأس الشاعر.

* **فاكهةٌ عجوز**: عاهرة كبيرة في السن، وهو تعبير دارج في ساحة الميدان، حيث قاع المدينة..

# الفهرس